أطياف تراوغ الظمأ

حسن العاصي

الكتاب : أطياف تراوغ الظمأ (شعر)

المؤلف : حسن العاصي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٩١٨٨ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 256 - 4

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور . الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

لوحة الغلاف : الفنان عدنان يحيى



أطياف تراوغ الظمأ

قصائد

حسن العاصي

إهــداء

كم على هذا الرحيل الموشوم فوق الجسد المسجّى في الفراغ

أن يغلق ذاكرته على المنافي

أيها المبحرون اعبروا بصمت

بين طيات الماء تغفو أرواحهم

إلى جميع الذين قضوا في المتوسط ولم يصلوا .

حسن العاصي

تقديم

آمال محمد

شاعرة وناقدة أردنية

الدخول إلى هيكل حسن العاصي يبدأ من هناك؛ من العبارة التي طرحت ذاكرتها على ورق النوايا، من الحزن الذي انتفض تحت وهم الشمس وهي تغرز صحوها حول رجفة الجفن المتعب... وأول اليقظة حرف يتبع شغف صاحبه نحو الضوء، نحو الباب الذي يفتح مصراعيه للطارقين المتلهفين، للقابضين على جمرة التراب وفي نفوسهم يقين لما تحمله الكلمة من جواهر وأجوبة تتيح نفسها لمن يجرؤ، وهل أوسع من قصيدة حُرَّة مفتوحة لتحمل ذاك الشجن، قصيدة تكسر قالب النمطية الضيق وتنطلق حاملة مشاعر صاحبها خارج قفص الرقم والحساب، فوق مستوى البحر وجداول السبب والوتد وما سجله الخليل وما سهى عنه.

ولندخل الأسباب ونقيم في دارة العاصي لحظات، نتأمل التكوين الذي قدر منازل الكلمة وبروجها وأقعدها وجذرها حول فلك المعنى وأطعمها نثرات النفحة التي تبث الروح في العبارة، التي ترفعها عن غبارها وحتى تلفظ أوصالها شعرًا... وأحتار وكل

عباراته تومض بالنبض العتيق، باليقظة التي تبث أتراحها على قارعة الرماد؛ قارعة الوجود اللحظي.. "وما طغى الوهم على صوت القلب"

في قصيدة ومضات قدرية :

على بُعدِ وشمٍ من النَّبضِ العتيقِ
عثرتُ على يَقظتي
وَضعتُ يَدي على قارعةِ الرَّمادِ
ألوِّحُ بالماء
كيْ يَسيل صَدى الحُزنِ
وأتلاشى مِثلَ أجنحةِ المطرِ

يقدِّم لنا الشاعر فلسفة الوجود، يشرح الماهية القدرية بُجمل بسيطة بليغة، ويقدِّم بعفوية نطفة من أثمن نطاف الوهج النثري وأعمقها، فإدخال صفة القدم على النبض الذي استيقظ في عروقه يحيلنا إلى الأفلاطونية وغراسها الأولية والتي تؤمن بوجود نفحة قديمة وفي كل كائن محدث وهذه النفحة هاجعة وحتى تلتقي بالكائن القادر على حمل نورها ونيرها فتبدأ بالشروق متخذة من الجبين مسكنًا ومن القلم أداة، وحتى إذا ما التقيا على النية النقية والاستحقاق التطوري فاضا يحملهما مركب الحرف ويحرسهما طيفه الملائكي...

بالنتيجة الحرف أو الكلمة وجهٌ من وجوه اليقظة، علامة جبرية تدق على الذاكرة وحتى تسيل حاملة ثمار تجربتها ومرورها على قارعة الرماد، على الوجود المادي.. وحتى إذا ما عادت النفس إلى بارئها أو مسكنها الحقيقي أو وجودها الفعلي الثابت الأعلى؛ تذكرت، ووسيلتها في ذلك الحرف والذي يعبر بين الممالك والحجب لا يمنعه حارس ولا ملك.

العبارة إذن ليست بالسهولة التي نعتقد، ولا هي غامضة أو عابرة، بل هي منازل لها شأنها وميقاتها وأسبابها، ولعل الشاعر العاصي من أيقظ الأقلام النثرية القادرة على التعبير عن تلك المنزلة، القادرة على العبور والتوازن بين صدى الحزن العتيق وبين الماء الذي يخفي الحريق؛ حريق النفس العليا وقد ضاقت بمحدودية الجسد واشتهت العودة أو اليقظة.

لعل تلك النطاف أو الغراس والتي يدسها الشاعر العاصي في جُملة "واعيًا أو غير واع" هي أهم ما يميز قلمه، هي الصلة التي ترفع مقام الحرف وتبث فيه الروح، وما الروح إلا النفحة التي تلقي بهالتها على العبارة رافعة ترددها إلى مقام الشعر ، ذاك هو الإيقاع المصمت " الإيقاع الداخلي" والذي يستشعر الميزان وقيم الأرقام الجذرية والنسبية، وبحس داخلي يتفوق على الحاسب العروضي النمطي.

شعائر نثرية متراصة بحبل من مَسّك، ومعانٍ مجنحة تتطيب من نفح الوريد تقول المشهد وبجرعة ضاقت حتى أشبعت... تلك فورة النثرية ومقام من مقاماتها العليا وقد استدعت أجنة المعاني وباطنها المرصود لغير المأهول ولا المطروق.

أربعون قصيدة تطلُّ من جُبِّ الخبايا، حاملة نطاف يقظتها وأجنة حريقها وهي تمر على الأرض الخراب وقد أودعت حبرها ملكوت الشعر المنثور، رفعته على أسنة البلاغة وتوارد المعاني وما يسقطه شجر المجاز من ثمر، وتلك الثمرات لا تأتي صدفة ولا تُعطى لمارٍّ، بل تلقى في القلب وبقدر مسبوق قديم يتراءى بين النبض والنوايا، بين الواقع وما تلقيه الظلال من رماد يتنفس تجربة الحياة... والشاهد حرف.. حرف مصمد أحادي القطب هاجع وحتى تلفظه النوايا، فيخفق وينبض بالعروق والفعل والفكر، يتخلق وكيان صاحبه فيصيرا كتلة تئن بالواقع المعاش والواقع المنظور.

وبعد... ألا يزهر كل هذا الصراخ، ألا يرفع نعشه على أكف الورق العذري، وقد هيَّأ للقلم بصره، ومد الحبر أرضه ومن ظل اليقظة التي طافت حول أسئلة الوجود وإلى اليقين، وقد اتخذ من الكلمة جسدًا تتعاطي مع قضايا الفكر والفلسفة وفوضى الواقع...

وفي كل قصيدة ولادة تشهق بموقف الشاهد العاصي على هذه الفوضى، يدخلها جزعًا ويخرج منها مطمئنًا واثقًا أنه في صخب المقام، أنه على حافة الصراط يسقط تجاربه وأوراقه آملاً في الخروج وإلى المقام الأعلى.

....

تجربة الشاعر العاصي تجربة تستحق الخوض فيها، وكلما مضيتُ في غابته الكثيفة الممطرة؛ كلما أدركتُ أننا أمام قامة فكرية نذرت

حرفها لما بعد المقام، لما بعد الفوضى، والتي امتدت إلى كل نواحي حياتنا، ولم تنقصه الجرأة في طرح قضايانا سواء الفكرية أو السياسية أو الفلسفية، وقد وظَّف قدرته البلاغية العالية ودقة تصويره وخياله الواسع كعامل طرح رفع هذه القضايا أمام البصر مكللة بطوق المنطق وسعة البصيرة وجمال التعبير.

المميز في لغة الشاعر أنها تأتي بقواميس الفلسفة المتخمة المعقدة وتجدلها بعبارة طيعة/ سهلة صعبة...
صعبة لمن وقف على الرصيف ولم يعبر نهر النثرية وسلواه..
سهلة لمن بلل أكفه بأجنة الخلاص وحاز على بذرة المعنى الصغيرة "الشاسعة".
وتلك لغة المستقبل، اللغة التي تقول الدهر بعبارة..
اللغة التي تفصل المارين عن الماضيين عن الباقين..,
اللغة التي تنتقي وتفاضل.

أبَشرِكُم بترابٍ يَمورُ

فِي البدء كَانَت الرّؤيا
تَعومُ في غُثاء العَتمَةِ
تحتَ سيقانِ الأعناقِ المُعلَّقَةِ
شجرُ الحَياةِ مازالَ يَجهَشُ
يتماثلُ للشدّةِ
ثمَّ كانَ ظِلُّ الرّملِ
يَتلو مَواسِمَ الأنهارِ
والوَصايا نُصوصٌ مُغلَقَة
يَنكسرَ الرّجالُ على
أعتابِ الموجِ الأسودِ
يَحبِسُ اللهُ أسفارَ الأرض
هَاجَ العِبادُ واستَعَروا
صَرَخوا..
مَن اصطَفى الَّشمسَ السودَاءَ

ومَن أوقعَ الفُصولَ بمِحرابِ الموتِ
قَد بلغَ الشيبُ الصّبيَة
قالتْ النسوَةُ إنّهُ ماءَ الوِلادَةِ
لا دَربَ في الخُطى الصَّماءِ
هذا الهَيكلُ مَرصودٌ
والمنايا تَتَناسَلُ
على بُعدِ خَيطِ ماء
بَكى الجَميعُ
انشَطرَ الغُبارُ
وشاخَ وَجهُ الطُيورِ
تَكاتفَ المُريدونَ والتَفوا
يُرتّلونَ أورادَ الماء
فوقَ القبرِ المُبلّلِ
تلافيفُ الغابةِ
ابتلعتْ فاتحةَ المَوتى
أغلقتْ مَخارِجَ البَشرِ

قالتْ العَجُوزُ
وَقَد أصَابَتها الغِشاوَةُ
وانقَلبتْ عَينُها
ثلاثُ صَلواتِ
حُدودُ البَياضِ
قبلَ موتِ السّديمِ
إني أبَشركُم بتُرابِ يَمورُ
إن أتَتكُم فَراشةُ الظّلِّ
ورأيتُم البِلادَ تَتَوضَأُ
من نَبعِ الغوايةِ
فاسْتَودِعُوا سِرَّكُم
واسِروا في جُبّ سريرَتِكُم
ثُم أوحوا إلى دَمِكُم
أنْ اقرأ الغفوةَ الأخيرَةَ.

●●●●

أطعمتْ ظِلّها لِلطُيورِ

مثلَ نُدفِ الفَجيعةِ
تَهطِلُ كالرّذاذِ السَّاخِطِ
خَطايا المَواسمِ
يَعزِفُ الفُجورُ
على وترِ الفِسقِ
ما تَيسرَ من المَعاصِي
قَد شَارفَ الجَوْرُ
على الهَلاكِ
غفتْ عُيونُ الضّوء
وجثتْ الصّغيرةُ
خلفَ ناصيةِ الكَفنِ
حيثُ كانَ النّورُ
على وشكِ السّقوطِ
أقامتْ نَذرَها

خلعتْ مَلامِحَها

لتُجرّبَ الجَنازةَ

وأطعَمتْ ظِلّها لِلطُيورِ

في رحمِ السَّوادِ المَحمومِ

أشهرتُ عَيني

هذا الوجعُ صوفيّ

قلتُ وقَد تكوّر قَلبي

تَريثي في احتِدامِ النهر قليلاً

قالتْ:

من استرعَى الضَوءَ

فقَد فَازَ

قلتُ أمسِكي ولا تَتَعجلي

واستَعيني بِحكمةِ الزَاهدِ

قالتْ:

يا سيدَ الورعِ

لي ربَّ أسالهُ الخَلاصَ

ومَدَّتْ لي ما بَقيَ مِنْ الرّملِ

قالتْ :

كانَ وَحيدًا في جبلِ الموتِ

فانقسمَ دَمُهُ على ظلّه

حِينَ أكلَتْهُ ذِئابُ القَبيلَةِ

ربطَ اللهُ على قَلبي

ابتعدتْ نَحوَ وادي الحَطبِ

تَسيرُ فَوقَ الماء

على بُعدِ غَفوةِ من التّعبِ

أغلقتْ المَدى

أقفلتْ كلّ سادرِ

وطَفى وَجهُهَا

فوقَ وردَةِ الخُبّيزةِ

انتهى الحُزنُ

صرتُ أبكي مَرتين.

● ● ● ●

أطيافٌ تراوغ الظمأ

رُبما لَيسَ صدفةً
أنْ أتَقمصَ وجهَ الحُلمِ
كي ينحسرَ الضوءَ
في انفجارِ الماء
ويمتدَ غلالاً في الحقولِ

ليسَ صدفةً رُبما
أن تَظلَّ وَحدكَ
في مَراسمِ الدَّفنِ
بعدَ أن يُغادرَ الجميعُ
أملاً في الوصولِ

حَتمًا ليسَ صُدفةً
أنْ تَتَعرّى المَسافاتُ
ويصبحَ الطينُ أحمرَ

حينَ يَجثُمُ الوطنُ

فوقَ الوريدِ

الكامنِ في الفُصولِ

مُتأخِرًا أدرَكتُ

أنَّ لذاكَ القلبِ

المسكونِ بورقِ اللوزِ

سحرًا لا يُفَسَّرَ

وأنَّ الفراشاتِ القادِمَة

مِن صمتِ الوقتِ

حطتْ بينَ أقدامِ النائمينَ

أدركتُ أيضًا

أنَّ الذينَ كانوا

يُعانقونَ حجارةَ القبورِ

مَضوا كَأطيافِ تُراوغُ الظَّمَأ

والبُكاءَ في ذهولِ

كانتْ الرّيحُ تَلسعُ مطرَ الليلِ
وكانَ الدمُ يحتَضِنُ جسدَ السّياطِ
كانوا أيتامًا
وكانَ الكاهِنُ يدوّنُ أسفارَ الأرضِ
خلفَ ألواحِ الطينِ
فصاحَ حينَ رآهُم:
إني آمنتُ بربِّ الغُلامِ
و بربِّ هذا الموتِ
الذي لا يزولُ.

●●●●

الخريفُ أغلقَ موجَهُ

متى يُغرِقُ البارودُ

مِن هذا الطوفانِ

بَلغَ الدَّمُ الضفائِرَ

وعاثَ بالقدسِ يَهُوذا

صَبرًا

منذُ أنْ أطعَموا

للرِصاصِ أضلُعَنا

سَقينا الرّيحَ

لونَ الحياةِ

قَد حانَ طَقسُ البترِ

والغِيلانُ تَحتَضِرُ

نُخفي البَحرَ في الغابَةِ

تَهجَعُ القَبائِلُ

فوقَ الغيمِ الضَّريرِ

كانوا يرتدونَ الفجرَ
فابتَلَعَتهُم مِظلَّةُ الوقتِ
أهدَروا النَّهارَ الأخيرَ
قُلنا:
هَلْ أتاكُم حَديثُ النَّهرِ
قالوا:
الخريفُ أغلقَ مَوجَهُ
والماءَ ينحسرُ

يَنمو السَّخطُ على أصابعِ البارودِ
والصَّمتُ كالأرجوحَةِ
عَورَةٌ بِلا رِداء
لا نَخْلاً يُشاطِرُنا قَهراً
ولا غَيثًا مِن بَلوانا يُجِيرُ
كأنَّ الخَواءَ يَمامةٌ
ذُبِحَتْ

كأنَنَا خُلقْنَا مِنْ
ضِلعِ عَليلٍ
في الماء الرَّاكدِ
يا اللهُ
امسك قُلوبَنا
إنَنا مُتعَبون

أيَّها المُتَوشحُ الموتَ
إنْ لَم تَجدْ عُشَّكَ
حَلّقْ في السّماء
سَتَجدُ يَدَ اللهِ تَنتَظِرُ.

●●●●

القناديلُ العارية

مِن أينَ أبدأُ ؟
مِن الريحِ التي مَزَّقتْ صَدري
وأدمَنَتَهَا القَصائدُ
أم مِن جُرحِ الأسئِلَةِ
في جُعبَةِ الوقتِ المُتساقطِ ؟
هذا حزنٌ مندسٌّ تحتَ ذاكرةِ النَّدى
وأنا أنتَفِضُ في غُباري
على أرصِفةِ الشّروقِ المُمتَدِ
نحوَ الشراعِ
أنا السّامقُ على بُعدِ خَسفِ وأحجارِ

فَوقَ سطورِ الدَّهشةِ أقفُ وَحيدًا
أصرَخُ في جوفِ الفَراغِ
فيتَشّظّى الوقتُ

ليتَناسَلَ غِراسًا موحشةً
كأنّ هذهِ الصرخاتُ قديمةٌ
كهذا الليلِ الموروثِ
وهناكَ كانَ فرحي مُسجّى
بينَ قَوافلِ الموتِ
واحتضارِ الأزهارِ

على كتفِ اللّيلِ أقفُ
وَحِيدًا كَسَوسَنَةٍ سَوداءَ
والحُورياتُ يُراقِصنَ خُيوطَ الماء
تَنسَدِلُ العَتمَةُ على وِحدَتي
هذا رَمادُ الذاكرةِ
منثورٌ فوقَ أجفانِ الخيباتِ
هذا العُشبُ حِكاياتٌ تَحترقُ
وهذا السّكُونُ ريحٌ
تنقلُ بياضَ الانشِطارِ

أرتَمي على وَهجِ الشَّمعِ
فُقاعاتٍ مِنْ تَواشيحٍ نَازِفةٍ
وعندَ سَاقيةِ الفراَغِ
أقتَلِعُ ضِفَافَ الدَّهشَةِ
رُبَما يَنبَلِجُ الصَّباحُ
شجراَ أسودَ
كانَ الحُلمُ نَائِمًا على أجفانٍ خائفةٍ
لا يَقوى على الطَّعنِ
كانَ البحرُ ظَمآنَ
والنوارسُ تَغفُو على مَدٍّ وانكسارٍ

يتآلفُ حُزني
مع النَّهرِ المُتكِئ عَلى قَلبي
أنْ يَغضبَ البحرُ
على أهدابِ الريحِ
كخَفقِ العَوسَجِ فوقَ رَابيةِ الرّحيقِ
المُنسدلِ شرفةً في الظلامِ

جاءَ المَوتُ
أيقَظَ جَمرُ الحُزنِ ورحَلَ
وعرشُ الفَراغِ
تَسلّقَ نِصفَ بَياضٍ
يُرَتّلُ مَرايا اللّوعَةِ
عِندَ مَغيبِ الأمطارِ

تَتَكسّرَ الزَّوايا في صُراخِي
وتَتَساقَطُ الأمواجُ مِن رَأسي
كَساقِيةٍ لا ضِفافَ لَها
مِثلَ مَاءِ ثَجّاجِ
يُغرِقُ الغَبشُ غابةَ الصَّنَوبَرِ
تَخلعُ الغَابة تَفاصيلها
ويعودُ العُصفورُ مُسبّلَ العَينينِ
والقناديلُ عَاريةٌ الصريرِ
وأوراقُ المَطرِ حَفيفٌ على ظِلّ الجِدارِ.

● ● ● ●

اللّوزُ أوسعُ مِن الحُطامِ

ظِلُّ المَسجِدِ يُزاحِمُ
الكَفَنَ العَتِيقَ
يُواري البَارودُ فَشلَ الصَّمتِ
ماذا لو قَرأتَ فَوقَ العَينِ
مُعلَّقةَ الأحزانِ ...
كسرتُ ضِلعَ الرّيحِ
ونَثرتُ فَوقَ السّتائرِ البَاهتِةِ
غَفلَةَ القَهرِ
يَطُوفُ جرحُ الكبدِ في السّاحاتِ
فَما بَينَ مَوتِنا والخُبزِ العَتِيقِ
مَسافةُ رَصاصةٍ
مُدَّ لِي بِآخِرِ العِظَامِ
وابسطِ الكفَّ
ففي قَيظِ السَّوادِ تَمْخُرُ

بُحورُ الضّوء

نَحوَ المَطرِ

هذا الصّديدُ أضيقُ

مِن طُوفانِ الكَلامِ

واللوزُ أوسعُ مِن الحُطامِ

يا اللهُ

قَد سَقطَ دَمُنا

سَقطَ جُوعُنا وموتُنا

ولم يَسقُطْ فِينا

بُسوقُ الشَّجرِ

يا أَبي

قَد ضَاقتْ الرّؤَى

وفي صَدري قُبورٌ

فَكيفَ لِي أن أكونَ

وَقدْ فَاضَ حَنظلُ أضلُعِي

وحُزني يَفورُ

أخشَى إنْ صَمتُ
يُفقِدُني ظَمأُ
الفَجرِ المَنظورِ
عندَ انعطاف الغابة
وقبلَ أن يَفرّ الشَّجرُ
من الجذورِ
يمرّ الألقُ المُتَدلي
عَناقِيدَ مِن النّورِ

يا أبي
تَقولُ صَبايا الحَيِ
الشَّهيدُ عريسٌ
تَتَنازَعُهُ الحُورُ
وَيقُلنَ
في يومِ الحشورِ
هذا أجرُ الله
ورِضاهُ للمَأجُورِ.

● ● ● ●

النُّصُوصُ القَدِيمةُ

هَاجرتْ الدُّروبُ

صَحراءَ بِلا خُطى

والكَاهنُ قَبضَ على التُّرابِ

وخَتمَ المَلامِحَ

عَصفَ الوباءَ بالقبيلةِ

كَانوا يتآكَلونَ ويَتَساقطونَ

كأوراقِ الخَرِيفِ

فِي فَصلِ مَهجورٍ

بلا لونٍ

امتلأتْ الخَيمةُ

قَالوا وَصلَ غَبقلُ الأبشَري

مِن بِلادِ عويلِستَان

سَجدَ إلى العزيزِ

يَحمدُ نعمةِ الوصُولِ
فَنَما العُشبُ على الأطرافِ
صَرَخَتْ النَّسوَةُ بِألوانِ الصّغارِ
قَد وَجَدَنا الطّاعُونُ

كانتْ تَفورُ بِالأجسادِ الحَسَراتُ
حَبّاتٌ مِن الجمرِ
وكانَ الاحتِضَارُ أبيضَ
طَيفًا يَتَصاعدُ نُورًا
وعُيونُ الوَقتِ
كَمساميرِ النَّعشِ
سَاعةَ الغروبِ
لَحظةُ الشُّجونِ

عليكُم بِرائِحةِ الزّبَدِ
إنها النَّصُوصُ القديمةُ
صاحَ العَرّافُ الضَّريرُ

وامتدَّ صَوتُهُ مَطَرًا

وَترِيَاقًا

لَم يَقبَل تَوبَتَهُم

فَهاجَ الجَرادُ

يَقرِضُ البِلادَ

والعِبادَ وَهُم رَاحلونَ

نَزلَ النَّاسُ إلى وَادي المَوتِ

وَقَد هَجعَ الليلُ

والذّئابُ التَهَمتْ المِئذَنَةَ

تَجمّعَ المُريدونَ حَولَ الضَّريرِ

يُنشدونَ أهوالَ الزَّمانِ

قالتْ النَّسوَةُ

إنَّ النَّخيلَ ابتَلَعَ الخَيلَ

وقالَ أحدُ الشُّيوخِ

إنَّهُ شَاهدَ الرّجالَ

يَسيرونَ بِلا أنوفِ

وَقالَ الأبشريّ

إِنّه شَاهدَ شجرَ الرّملِ

يَسيرُ فَوقَ الماءَ

وَصَرخَ بالراحلينَ قَبلَ أن يموتَ

إنّها الوَديعةُ يا قوم

فَشيوخُ القبيلةِ

كاذبونَ منافقونَ.

●●●●

أول الدهشة

أيّها السّديمُ المُتَدَفّقُ
اعزِفْ عَلى ظَمأي
لَحنَ الغُربَاءِ
بِمقامِ الجَفافِ
اعزفْ على القُبورِ
مَقامَ العِظامِ
إنْ شِئتَ لَحنَ الانتماء
أصلحْ أوتارَكَ وأكملْ

يا أبي..
المسافةُ صيفٌ والدروبُ ماءٌ عَارٍ
قَد مَرّتْ خَمسُ غُيومٍ
في أوّلِ الدَّهشةِ
سَتظلُ الأشجارُ عَلى قَيدِ الضَّوء

تَحترقُ الغِربَانُ
فوقَ أغصانِ الصّفصَافِ
وَزَهرُ الليمونِ حارقٌ هذا النهارُ
مسكونةٌ هذهِ اليقظةُ بالفراغِ
والنَّهرُ بَياضٌ يُضاجِعُ المَرايا
خَلفَ هَذا السَّوادِ المَحمومِ

يا أبي
جُنونُ المَوتِ يَسيرُ بِلا خُفين
يضيقُ الماَءُ عِندُ كُوةِ الحَياةِ
كَعصفورِ مُبلّلٍ بالخوفِ
يَرتعشُ غُباري
يَمتدُّ الغُصنُ فوقَ جَسدي كَفنًا
أعبرُ الضّفةَ الأخرى
لا سَبيلَ لِلهروبِ
مِن هَذا النَّبضِ الموشومِ

هذا الوجعُ صُوفيّ النَّزفِ
وهذا النَّصلُ خُبزُ النَّبيَ الهاربِ
تُشهِرُ الصَّلاةُ قَلبَها
يَفتَرِشُ ظِلّي لَونَ الخُطى
ويَتَبَعثَرُ القَصيدُ فوقَ نَحرِ الموجِ
على خَدِّ الفُصولِ بَكتْ فَراشاتُ القمرِ
دَوِّنْ أساطيرَ الدَّمِ المَسفوكِ
وهبني الخفقَ المكلومَ

هذا البُخارُ المالحُ
يجتاحُ رَائحَةَ الصَّلاةِ
يَمضي الوَطَنُ نَحوَ مَوتٍ يَشتَهيهِ
والصّغارُ يَجْرونَ خَلفَ النَّدى
يَطلي رُؤوسَهُمُ التَّرابُ
تَنتَصبُ الهَزِيمَةُ وتَتَطاولُ
وتَمدُّ مخالبَ تُكبّلُ الرّصيفَ
غيمةً غيمةً
والثمرُ مسمومٌ

وحدنا وهذه السّاعةُ الصَّفراءَ

نَتَلاشَى في فراغِ المَواعيدِ

والعصافيرُ سحابةٌ

أينعتْ عُشَّ القَمرِ

مَن منكُم رَأى قَتيلاً

يُعانِقُ نَصلَ قاتله

مَن شَاهَدَ المسَاءَ يَشقُّ

بُخارَ البَحرِ

والأسماءَ تَموتُ ويَتراقَصُ الحَنظلُ

فوقَ الجَرادِ المَلمومِ

فوقَ قيدِ المَدى

تَرسُمُ الرّيحُ فَوضى

تسقطُ الظلالُ على المَرايا

والذاكرةُ مَرثيةٌ زَرقاءَ

وفراشاتُ القلبِ تَحترقُ

على أطرافِ العُزلةِ

هذهِ الأجسادُ مُقيّدةٌ
فوقَ الغُبارِ
والأطرافُ وقتٌ يَهبِطُ وَيضيقُ
بينَ أنيَابِ الرّحَى المَغمومِ

يا أبي
هذا النَّصلُ الغَائِرُ يَرتدُّ
مِن ضِلعٍ إلى ضلعٍ
وتِلكَ المَواسمُ عاريةٌ
والبساتينُ أوراقٌ صفراءَ
أمعاءَ المَدينةِ تَتَساقطُ
قُبورًا فوق قبورٍ
حتى ضَاقَ بالقبورِ التَّرابُ
وتَساقطتْ عُيونُ الشَّمسِ
فوقَ كلّ شَارعٍ وكلّ دارٍ
وعلى تلكَ الكرومِ.

●●●●

حضرة الرئيس

لا يُشبهُ أي رَئيسِ
إنَّهُ مَحمود عَباس
شَعبُهُ من الصَّابِرينَ المُجاهدينَ
وهوَ أصبحَ للنَّذالةِ مقياس
ليسَ لهُ من اسمه شَيءٌ
فهوَ تافهٌ مُتلبّدُ الإحسَاس
في المَحافلِ تراهُ خَطيباً مثلَ الطَاووسِ
يَختالُ بَينَ القادةِ مَزهواً بِقدّهِ المَيّاسِ
لكنْ إنْ اشتَدَّ أزيزُ الرّصاصِ في المعاركِ
تَجدْهُ هَشًّا لَيناً كَغُلمانِ أبي النّواس
قبيحٌ متملّقٌ يُجاهرُ بِالنّذالةِ
وأمامَ المُجاهِدينَ يُطأطئُ الرّأس
في كلّ عُرسٍ له قطٌ ونُصيبٌ
وحاشيَتُهُ تَسرقُ أرزاقَ الناس

ألا لعنةُ اللهِ عليهِ وعلى اللصوصِ أمثالهِ
نبيلٌ وياسرٌ وعمرٌ وعزامٌ وصائبٌ وإلياس
يَعيشُ مع خِرفانه في رامَ اللهِ
كطفلٍ عنيدٍ مُدللٍ يَصرَخُ أنا الأساس
يُعانِقُ "نَتنياهو" في العَلنِ دُونَ خَجلٍ
فَهُو مثلهُ لَئيمٌ سَفيهٌ وعِرقُهُ دَسّاس
ويُراقِصُ خَليلَتَهُ ليفني لَيلاً
وَيضرِبُ الكَأسَ مَعَها بِالكَأس
لا يَحفَظُ سِرّاً ولا عَهدًا فَهوَ خَائِنٌ
مُسجّلٌ في الموسادِ مِهنَتهُ عَسّاس
مِثلَ الكلابِ حَاسَّةُ الشَمّ لديهِ قَويةٌ
وَهي طَبعًا فَوقَ كُلِّ الحَواس
ما إن تَشتدَّ سواعدُ ثوارِ "غزةَ"
يُجدّدُ الطَاعةَ لِأسيادهِ مَنعًا لأي التِباسِ
لِسانُ حَالهِ يَقولُ: أنا بَريءٌ مَن تُهمةِ النّضالِ
فأنا كَما تَعلمونَ مِن المُخلصينَ الحُرّاس

وحينَ يَعلو في غزةَ صَوتُ المَعركةِ

يتنقّلُ كإبليسٍ بَينَ العواصمَ للتآمرِ على حَماس

لا خيرَ فيهِ وَلا منهُ فالغثُّ غَثٌّ والسَمينُ سمينٌ

قَد تَرَكَ الحَقَ وارتَمى في حُضنِ الأنجَاس.

●●●●

حِضنُ أمي

يا دِمَشقُ أخبِرِيني
كيفَ يَغفُو النَّخيلُ بينَ يَديك
وَيَستَمطِرُ هَواكِ قَاسيونَ
بالعشقِ وَشيا

وكَيفَ كَانَ الغُرَبَاءَ
يَتَوَسّدونَ وَجهَكِ
كفًّا طَريًّا

إني أُحبُكِ يا شَامُ
مُنذُ كُنتُ صَغِيرًا
وَمازلتُ فيكِ صَبيا

باللهِ أخبريِني يا حِضنَ أمي
كَيفَ كُنا نُسافِرُ فيكِ
قَصيدَةَ عِشقٍ وريًّا

فَصِرنَا نَبكِيكِ يا شَالَ رُوحِي
وشَاطَتْ على شَقِ صدرِكِ
حُروبُ القَبائِلِ
فَكانَ الوَعدُ شَقِيا

يا شامُ
تُرابِطينَ على جِراحِكِ
آيةً من ياسمينٍ
كأنَّ نَبضَ عُشّاقِكِ
يتدفّقُ على بَراعِمِ قلبكِ
رَحيقًا نَديًّا

يا أمَّةَ الشّعرِ والتّمرِ
يا أُمّةَ الفَصاحَةِ والوَقاحَةِ
يا أمّةَ الأمرِ والخَمرِ
يا مَعشرَ الدَنانيرِ السّخيا

يا معشرَ الغلمانِ والبَغايا
إنّها دِمشقُ
حوريّةُ المدائِنِ
إنّها الترياقُ
لكلّ سَقامِ وسَقيمِ
والعِلةُ لكُلِ شَقيا.

●●●●

خمائل الاحتضار

كيفَ لَكَ أيُّها الوَطَنُ
الجَاثِمُ في صَدري
أنْ تَمتَطيَ رَائِحةَ قَلبي
دونَ أن تَمضَغَ لَحمي
وكَيفَ تَضمَحلُّ المَوَاجِعُ
والكُلومُ في اشتِدادِ
لو أنَّ هذا الرّملَ
يمتَشِقُ النُورَ المُنسَدِلَ
لو أنَّ الاحتِدَادَ
مَخاضٌ يَفُورُ
يَقتُلُني أو يمُوتُ

كانَ يُشبِهُ الفَراشَاتِ الَتي أينَعَتْ
فوقَ خَمائِلِ الاحتِضَارِ

رَسمَ مِن كَفه
جِسرًا لِلعُبُورِ
وأجنحَةً لِلإمطارِ
امتدَّ صَوتُهُ
قَهرًا يَتَنَاسَلُ
شَهيدًا عَن شَهيدِ
وغَضَبًا كالإعصارِ

عندَ الرّمَقِ الأخيرِ
مِنَ الدروبِ العَتيقةِ
يسيلُ حَصادُ المَدينَةِ
على جُدرانِ الرّيحِ
رِيشًا ظمآنَ
كَسديمِ الفَجيعةِ
ينفثُ دَمًا مُتَدَفقًا
فَوقَ رُؤوسِ النّساءِ
تَلتَقِطُ المَدينةُ سَنابِلَهَا المُنهَكَةَ

مُدَّ ذِراعَيكَ للأحمرَ القَانِي
وأطلقْ غَضَبَكَ
هُناكَ سَتلقَاني
رُبما لا يكونُ الموتُ
آخرَ المطافِ...
قَد يَكونُ يا صَغِيري
أوّلَ القِطافِ.

••••

دروبٌ لا تسير

لا شيءَ فِي شوارعِ المُخَيمِ
إِلَّا الفَراغَ
جُدرانٌ باردةٌ
ومواعِيدٌ لا سَقفَ لَها
وَأطفالٌ يَرتَدونَ رائحةَ الطَّعامِ
لا شيءَ فِي رحيلِ الوقتِ
إلّا غبارَ الجوعِ
ومعصيةَ المكانِ
وذاكرةً عابرةً كضبابِ البُحورِ

جُوعٌ يَترصَّدُ عُشبَ طُفولَتي
فَتذوي أشّجَارُ الجَوزِ
يَتقشَّر جِذعُها قَهراً
وَيَطفو على اليَباسِ وَجهي

أرسُم مِنْ بُكاءِ الصّغارِ جِسرَا
كَي أصلَ إلى فَمي
أُلَمْلِمُ ما انفرط
مِنْ أساطِيرِ الجدّاتِ
وأنحَتُ مِن وَجهِ العَاصِفَةِ
خَلاصَ العُبورِ

لا شيءَ نأكُلُهُ في مَدينةِ الخَوفِ
ولا ظِلّاً لِشجرةٍ
هذا المَكانُ خَرابٌ حَزينٌ
وغُبارٌ مَجنونٌ يَتَنَهدُ مَوتًا
فَخلفَ جُدرانِ المُخَيمِ
تَتَوالدُ الأكفانُ
هذا الجُوعُ
يَقبضُ بِعُنقِ الحكايةِ
أُغمضُ عَينايَ

ثُمَّ أرسمُ مِن حُزني دَربًا
يَصلُ إلى القُبورِ

الطَّريقُ باردةٌ يا أمي
لعنةُ القَمحِ تَذبَحُ النّسوةَ
أسرِقُ كَفي
لأُخبِئَ طَريقَ المِلحِ
الدروبُ لا تسيرُ
الموانئُ حريقٌ خلفَ الذَاكرةِ
المدينةُ أغلقتْ الجَنازَةَ
أغلقتْ كُل شيء
وفتحتْ البُكَاءَ
خلعتْ قَلبَهَا لِتُجَرّبَ القِيامَةَ
فَنَحَرتْ الصّدور.

••••

ذاكرةٌ من مطر

رحلَ شاعرُ الثَّورةِ الفِلسطينيةِ "أبو عَرب" الّذي غَنّى لِفلسطينَ طوالَ سَبعينَ عامًا حَتى اللّحظاتِ الأخيرةِ الّتي أَمضَاها بيننا علَى فِراشِ المَوتِ ، فِلسطينُ التِي قَالَ عَنها" لُكل النَّاسِ وَطنٌ يَعيشونَ فيهِ.. إلّا نَحنُ فَلَنا وطنٌ يَعيشُ فِينا".
هُوَ خَالُ جَميعِ الفِلسطينيينَ، أبو عَرب مَوَّالٌ مَفتوحٌ على السَّماءِ، نَبْتٌ خَارجٌ مِن دَمِ الوَطنِ... أَبو عَرب الحَبَقُ النَّازفُ طُهرًا

كَما على الصَّوتِ المَولودِ
يُزهرُ اللَّوزُ والصَّنوبرُ
كَما فِي جَوفِ المَعانِي العَتيقَةِ
يَنمو الرّبيعُ مَواسمَ من مَطرٍ
يَضيقُ القَصيدُ على مَزاميرِ النَاي
يَتَوهَّجُ الفَراغُ خُواءَ
كَسلالِ الرّيحِ
الوطنُ مناجلٌ عَمياءَ
الروائحُ بَنفسجُ القُبورِ
النَّوافذُ غُبارُ الفَصدِ

والأسماءَ وَريدُ الخَبزِ
يَقرُضُ أكفَّ الصّغارِ

يَطوفُ الرّملُ شَوكًا وبارودًا
أبسطُ زِندي وِسادةً لِأوجاعِ الطَّريقِ
لِتَغفو الوجُوهُ العَابِرَةُ
لا شيءَ سِوى مَلامحِ مَحمومةٍ
وَسوادٌ يَتَوَسّدُ نَافذةَ الفُصولِ
نَتَلوّى كَيْ نَقطُفَ عُشبَ العُيونِ
فَكيفَ نُوقظُ رَعشَ المَوجِ
وأنَامِلُنا عَمياءُ
والرؤيةُ فِي انكسارِ
أيّها المَوشُومُ على النَّبضِ العَتيقِ
باقٍ أنتَ كَزيتونٍ مُتمردٍ
أيّها المَبعوثُ نَرجِسًا
من رَحمِ التَّهَجُدِ
قَادمًا من سَبعينَ طَعنة
أيّها المُتَدَثرُ بِضَفَائِرِ الحِكاياتِ

بَاقونَ نَحنُ في جِذعِ المَواويلِ
أيُّها الرَّاحِلُ سَيلاً مِن رِيحِ وغضبٍ
سلامًا لِأكُفٍّ تُمطِرُ جَمرًا
سلامًا لِوريدٍ مُبتَلٍّ بالنارَ

لو أنَّ الأرضَ تَمتَشقُ الوُجوهَ الزَرقاءَ
لو أنَّ هَذا المَخاضُ
يَقبِضُ على يَقظَتي
أو يَموتُ
لو أنَّ المكتوبينَ في جوفِ الحُرقةِ
نُورٌ يَنسدلُ
فأيّ بَحرٍ يُمطِرُ بَارودًا
وأيّ ظِلالٍ تبترَ النسماتُ
وكيفَ لكَ أيُّها الجَاثمُ
في الوَجعِ المكتومِ
أنْ تَمتَطيَ رائِحةَ قَلبي
دُونَ أن تَمضَغَ لَحمي
وَقتَ الاحتِضارِ

أيَّها البَاسِقُ تُشرّع جَناحَيك
صَوبَ وطنٍ
يا سرّ الغَيماتِ الناعمة
رائحةُ التعبِ تَقطفُ لونَ عَينيكَ
يا بَسمةَ المُخيمِ
باكورةُ الشَّغفِ
كنتَ أشواقنا تطيرُ
حدَّ سنابلِ الوجع
كانَ المَطرُ يَلسعُ عِظامَنا
والدروبُ تُعري قَاماتِنا

أيَّها الفَارسُ ثوبًا يَنتفضُ
مُسبّلَ الجَسدِ
حَيثُ ارتعاشُ الضَّوء
فوقَ الدَّمارِ.

●●●●

رائحةُ الصَّلاةِ

تَكتبُ الرّيحُ بالطّينِ
أسماءَ القَرابين
تَنحَني شَلّالاتُ النّارِ
وتَمضُغُ الرّمالُ بَطنَها جُوعًا
أينَ الفُرسانُ ؟
مَنْ رَأى رَقصةَ الغَجَرِيَّةِ
الرّقصةَ الأخيرةَ
فَوقَ الصّدى الخَافتِ
بِلا صِياحٍ.

كأنَّني وأنَا ألوي عُنقَ الصّحراءَ
أنامُ في هدوءِ البَقايا المُنكَسِرةِ
يَغسِلُ فَضائِي نَهرَ النّجومِ

كَأنَّ لا مَساءَ
بَعيدًا عَنْ هَذا التّيهِ
أفتحُ الفَجرَ
فَأينَ مَنْ وَعَدَ الغيومَ ؟
تَذوي العتمةُ
إن شَاقَهُ الصَّباحُ.

عَانقتُ مَوجَ النَّخيلِ
كَي لا يَجفَّ الرّملُ
لَكنَّ البِحارَ اشتَعَلتْ
وارتدَّ وجهُ المدينةِ
وبكتْ كَالعجوزِ الصَحراءَ
امتدتْ أطرافُ الخَطايا
سفرٌ ورؤيا
صوبَ الصَّراخِ المُتصاعدِ
مِن تلكَ الأرواحِ.

صحراءٌ تُنجِبُ صَحراءَ
أرقدْ هُنا
هَذا حُزنك المُؤَقَتُ
انطَفأتْ الأمنياتُ
والسِتارُ أُسدلَ
قبلَ الدَّمعةِ الأولى
تَكتظُّ المَلامحُ
في المَرايا المُنكَسِرَةِ
وَتَتَدفّقُ الجِراحُ

كنتُ أبحثُ عَنكَ
خلفَ الصَّمتِ المُتعَبِ
في انكِسَارِ الظِلالِ
تلفظُ الّلغَةُ أنفَاسَها
فوقَ سَطرٍ يَحتَرِقُ
مَن يُدمِنُ طُقوسَ المَوتِ ؟
إنّي أراكَ

حُزنًا أزرقَ كَطحالبِ المدينةِ
وجناحُكَ نُواحٌ

يَستَمطِرُ وَجعُ الطَّريقِ نَافذةً
فَمن يُنادي الأمنياتِ
إذ استيقظَ الجُرحُ
ولم أبذرْ بَعد
في رَحِمِ الأفقِ الضَّريرِ
جُنونُ الرياحِ

أشتعلُ فوقَ خُطوطِ المِلحِ
مثلَ الصَّنوبَرِ الحَزينِ
قالتْ أمي
خَاصِرةٌ واحدةٌ بسبعِ شوكاتِ
كانَ وَلدي

وقالتْ بَناتُ العمّ
كانَ يَعرفُ كُلَّ مَطرٍ وكلّ جَسدٍ

فِي غابةِ المَوتى
فَرَحلَ ذاتَ مَساء وَحيدًا
وأقسمنَ وَهُنَّ يَبكينَ
إنَّ رَائحةَ صَلاتهِ الأخيرةَ
تورقُ على نَوافذهِنَّ
كُلّ مَساء
ضَوءٌ لَهُ مَذاقُ التُفّاحِ.

●●●●

صدرُ النَّهرِ

هذا الرحيلُ يَشطُرُني
هُناكَ
خَلفَ تِلكَ الفَوانِيسِ النَّائِمَةْ
تَمامًا خَلفَ أقدامِ التلالِ
يَعجُنُ التَّرابُ دُموعَ العابرينَ
يَرتعشُ البَياضُ
على غصنِ الماء
وَيُحلِّقُ وَترُ المآقي
نَحوَ السّرابِ الغائبِ
حَيثُ تَنعُقُ الغربانُ.

في ميادينِ المدينةِ
بُخارٌ أسودٌ
يَحجِبُ عُريَها وَيَفورُ

تُناديني الدُّروبُ القَديمةُ
وَالجُدرانُ الجَريحةُ تَتَلوّى
وَحيدًا أرحلُ بِهدوء
نَحوَ كآبة حجر
تحتَ جُنحِ الطُغيانِ.

خلفَ هذا السّدرِ المُتدفّقِ
يَخرُجُ مِن رَحِمِ المَجَرَّةِ
رِيشٌ من فضةِ
يَنفثُ دَمًا
فَوقَ رُؤوسِ الطيورِ
فَينقسمُ الوَريدُ
وَتَستَعصِمُ أوطانٌ.

يَغفُو القَمَرُ عَلى خَدِّ الشُّرفةِ
كانتْ الحُروفُ بَعيدةً
مَسافةَ حُزنِ
والهَيكلُ رَمادٌ يَقِدُ المَساءَ

والنجومُ ياقوتٌ يَمورُ
والصَّلاةُ بِلا إِيمانٍ.

فِي قَعرِ الجُبِّ
تُعلّقُ المَشانِقُ لِطَلَّةِ الفجرِ
فِي دُكنَةِ الطَرِيقِ
تَهطِلُ الفَجَائِعُ
تُرَتِّقُ النّصَالَ بِالعِظامِ
تُقُوبَ الأُفقِ السَّاجِدِ
عَادَ الصَّباحُ ساجٍ بِغيرِ عادَتِهِ
يَجرّ حَقائِبَ مَنْ قضوا
فَوقَ حُصرِمِ الأَكفَانِ.

أُصَلّي فوقَ ريحِ الحُزنِ
وأحمِلُ الحَقلَ بِكفي
تَخنُقُنِي الطفُولَةُ
رُبما أَمضي بَعدَ جَدولٍ
أو طوفانٍ.

ادفني هُنا

تمامًا هُنا

حَيثُ صَدرُ النَّهرُ يَغسِلُ الضّياءَ

ثُمَّ خُذ سَدِيمي

فَوقَ لَوحِ الأيتامِ

طَيفًا يَغفو على نافذةِ الأحزَانِ.

●●●●

ضِرعٌ لا يَروي ظمئً

على بُعدِ ثلاثِ قَوافِ
مِنَ المَوتِ
كتبَ على الألواحِ المُكبلة
كُلّ مَا نَشَرتُهُ من قَصيدِ مُتَقرّحِ
كُنتُ قَد وَرِثتُهُ رَغمًا عَني...
من رَمقِ الرّمل
خَلفَ كُوة الخَرابِ
وإني قَرَأتُ
عَن الصَّلاةِ على الأحياء
قَبلَ أنْ أكتُبَ
إنَّني لَم أكُنْ عَاقلاً
ولا مَجنونًا
حينَ جَرتْ أصابِعي
نَحوَ سدرةِ القَصَبِ

لكنْ دُروبي سَقطتْ

في غَيبوبَتِها

والنّايُ ضَاقَ

على عَصافيرِ البَحرِ

فَوهبتُ النارَ وِلادَتَها

قبلَ اشتعالِ الجُوعِ

وخرجتُ مِن دَمِ الغِوايَةِ

كَطُهرِ المَدى لَحظةَ الخَطِيئَةِ

فهَل للآبِقِ مِن حِكمةٍ ؟

أينَ المَفَرّ ؟

لا نُبوءةً في النّصالِ

والأزمِنَةُ كَالأفخاخِ

تَهوي فَوقَ الأعناقِ

لأنَّ صَلاتي رَحَلَتْ

دُونَ بَحرٍ

فَالنَّبيّ حَزينٌ..
حَزينٌ جِدًا
لا أملكُ سوى جَنازَتي
وَضرعًا لا يروي ظَمئً
هُناكَ خَلفَ المدينةِ المَكلومةِ
تَمامًا هُناكَ
بينَ مَواسمِ الصبّارِ
وَمقامِ الوجدِ
تَراتيلٌ تَحرُقُ المَدى
قَد أتممتُ
حانَ الرّحيلُ بِجسدِ بَاردِ
مِن شُرفةِ الزَّيفِ
إلى وَردةِ القِيامةِ.

●●●●

طُفولة

انكسرتْ طُفولتُنا

على ظِلالِ المطر

انسدلتْ حبّاتٌ بلا لونٍ

مِنْ بَيْنَ أيدِينا

عندَ اختلاطِ الدُروبِ

فوقَ أجنحةِ المرايا

يتمددُ مَنْفَانا

في الموانئِ الشمالية

يبعثرنا كأوراقِ الخريف

مثلَ أوراقِ

مِنَ السوسنِ البريَ

موشاةِ بالندى كنُا

وحين رحلَ الفرحُ

كُنّا كأزهارِ صغيرة

تتفيأُ رائحةَ الطينِ
نخلعُ اللحنَ الورديّ
ونزهرُ في الليلِ حُلمًا
وقبلَ الضُحى نتفتحُ سوسنَ
نغزلُ مِنْ لوعةِ اليُتمِ
اسمًا لحواري المُخيمِ
يبترَني الصقيعُ إذ أغفو
أقفُ على الرصيفِ الباردِ
أنتظرُ آخرَ القادمينَ إلى المدينة
ليحملا آخر وردة..
فمن يشتري أحلامَ الصِغار
بنبتةِ صبّار
ومن للهاربين باب الخلاص
أصبح الفجرُ بلا عينين
نام الصغارُ فوقَ أكوامِ الشقاء
يحلمون بكعكِ العيد.

●●●●

▪ قـرار

تَمطَّى الظَّلامُ عَلى الصَّباحِ
وَتَبَخْتَرَ النَّهارُ عَلى الحَكايَا العَتِيقةِ
فَتَناثَرَتْ ضَحكَاتُ الصّغارِ
فَوقَ أجنحةِ الفَرحِ
يُعلِّمونَ اللّيلَ مَعنى الابتِسامِ

كَانَ المَطرُ يَغسلُ عُيونَ المَساء
وَالصبايا يَتَراقَصنَّ كَدُمى الخُيوطِ
وَحينَ انسَدلَ اللّيلُ
عَلى خَدِّ العتمةِ
رَقدتْ الأقدامُ المُتهالِكةُ

وَهجَعَتْ الطَّيورُ فَوقَ الأغصَانِ
سَكنَ الضَّجيجُ خَلفَ الأبوابِ
وَغَفتْ عَلى السّطرِ حُروفِي
فَصَرَخَ السّوادُ
أينَ زفيرُ الأحلامِ ؟

▪ جـواب

هَذا الحُزنُ يَقتُلني
يَحتَكُّ بِحوافّ أضلُعي
يَلدغُ الجَسَدَ العَاري
يُغلّفُ الفَضاءَ وَيَتشظّى أفاعِ
تَتَقلّصُ دَوائِرُ الضَّوء
وتَتلاشى الدُّروبُ
يَتَسرّبُ الطّينُ مِن عُنقِ العَتمةِ
كَعقدِ مِن تَعبِ
فَوقَ هذا الحُطامِ

هُنا صَدري يَخلعُ صَوتي
وَصُراخي شِراعُ الرّاحلينَ
قَلبي يَنكَمِشُ فَوقَ لَبادَةِ الدَّمِ
وَتُصبِحُ أقدامِي كَالأوتارِ
تَتَمددُ أطرافِي تَقضُمُ الشَّوكَ
فَأتَوسّدُ أصابِعي
وأبتَلِعُ الصَّحراءَ وأنامُ.

●●●●

عورةُ الغَسَقِ

فِي الفجرِ
رَويَ المُؤذنُ مُدنَ الجُوعِ
والنَّاسُ راكعينَ
فِي لَحظةِ السَّجودِ
بَحثَ فِي عُمقِ السَّاقيةِ
عَن سريرٍ من زهرِ المَوتِ
وعَن وِسادَةِ خضراءَ
بِلا حدودِ
وفِي عَورةِ الغَسَقِ
هَتفَ النَّبيَ الكَفيفُ
هُو يَومُ الوَعيدِ
مِن أَوَّلِ طَعنَةِ
فِي خَاصِرَةِ الخَليفَةَ
ذَات شهيد

قَد يُطبِقُ السّجّانُ وِحشَتَهُ
وَيَنغَلِقُ الخطو
قَد تَلَوَّكنا الرّمالَ
وَيتعبُ مِن مَنفانا القَصيد

لكننا سَنُوقظُ لَونَ الصَحوِ
لَن تُردِينا مَسافةُ رَصاصَةٍ
وَلَنْ يَكونَ مَوتُنا كَالعَبِيد

وَالدَّمُ يصبحُ غَيمةً
غُيومًا تُمطِرُ
فَرحًا أبيضًا
كأنّهُ التّرياقُ
لِسُقمِ الوَريد.

● ● ● ●

فراشاتُ البَحرِ

يُهدِيني البَحرُ أطرافهُ
والنَّوارسُ تَنثرُ مِلحَ الهَذيانِ
في أدغالِ الفَوضى
والعُشبُ المَحمومُ رِيشٌ
خَلفَ الوِشاحِ
والأرضُ أفواهٌ بأنيابٍ وَعِرَةٍ
الماءُ ما زالَ يتنفسُ
النَّوافِذُ سَنواتٌ ثَكلى
وَالمَعنى حنينٌ يَتساقطُ فَراغًا
المَوجُ قَصيدةٌ
تتَسَكّعُ فوقَ الأضرحةِ
في خواء الليلِ
تخذُلُني المَعاني

حِينَ يَفورُ الحَرفُ
بَياضٌ بلا جسدِ
فاقترِبْ من قلبي أكثرْ
التقطْ بعضَ صمتي
واحذرْ من فوهةِ الهاويةِ
لئلا ترقصَ فراشاتُ النارِ
فوقَ الملامحِ العاريةِ
لا أملكُ شيئًا
لكنّي أنقسمُ مَرتينِ
وَأعبرُ نايَ الموتِ.

● ● ● ●

قبائل النار

وَحدي كُنتُ أصرخُ
أطْفُو على حُطامِ الوقتِ
المُبلَّلِ بالاندثارِ
مثلَ غَريبٍ
في صحراء العيونِ
كانَ الوطنُ يتهاوَى
دخلتُ المدينةُ
تَسبِقني رائحةُ الطفولةِ
كانَ صوتي يَمتدُّ
تعبًا منْ ريحٍ
مَشيتُ نَحوَ غابةِ الموتِ
فرأيتُ الطيورَ تُصلّي
وأشجارُ الصّنوبرِ خاشعةٌ
تَقدَّمتْ نحوي قَبائلُ النّارِ
صَلبَتْني فوقَ محرابِ الملحُ
عَبرتْ زنابِقُ أمِّي تُباركني

يُصبحُ صَوتي أنفاسَ مَاءِ
بطعمِ التّينِ
تَعرّى القَحْطُ مِنْ صَمْتهِ
وأدخَلني قَبْري
لَمْ أكُنْ نَبِيّا
لكنّني كنتُ مَجنُونًا
فأثْمَلني الفِطامُ الأولُ
قالَ حارسُ الغابةِ
خُذوهُ وغَطُّوهُ بِثوبٍ أخضر
كَيْ يَنسى مَوتَهُ
أوصَدوا دُونَي بابَ الخَطايَا
وَوهَبوني مشعلاً للخلاص
شاهَدتُ قبري يَبكي
فَبكيتُ
ولَمحتُ الوطنَ يَغْفُو
عَلى كَتْفِ الدُّموعِ
قبلَ أنْ أتلاشى في الهذيانِ الأخيرِ.

• • • •

قبل أن تتخشب الغيوم

فرّ الناسُ إلى الجِبالِ

قَد أوشَكَ المَوجُ أنْ يَنفَرِطَ

فَلا عَاصِمَ مِن الغَفلَةِ

نَسيتُ يَدي عَلى فَمِ الحُقولِ

فَتَذكَّرَني الدَّربُ

لَكن الجِهاتَ

أضَاعَتْ خُيولَ المَواسِمِ

أزفّت سَاعةُ الشَّقاء

فاختَرْ مَوتَكَ

عَلى حَوافِ المَطرِ

أو فَوقَ سرّةِ الغُيومِ

لَكنني طَاعِنٌ في البِؤسِ

فَكيفَ أكتُمُ نفحَ الوَريدِ

وَعصايَ لا تُبارِحُ أخاديدَ التَّرابِ

لا بُدَّ مِن مِزمارِ

لِننجو مِن الهلاكِ

صَاحَ الدَّرويشُ الضَريرُ

إنَّهُ الطَاعونُ

تيمّموا بِالنَّورِ المَعصومِ

قَبل تكوَّرِ الأفقِ

تَخلّفَ الصّغارُ

يَسحبونَ وجهَ الشرخِ

فَظهرَ من الشَّقِ الرّمادي

وَطئٌ العتمةَ الصَّغرى

وَفاضَ حَنظلاً يَتدانى

وَتَقَمّصتْ الواحةُ

بلاغةَ الرّملِ

تَقطُفُ أكفَّ النَّهرِ

والعبادُ لا أحياءَ ولا أمواتًا

لا بدَّ مِن شَمعِ طيني

قبلَ أن نَتَعرّى مِن لَحمِنا

صَاحتْ النَّسوةُ:
تَقاسموا ظِلّكُم سَاعةَ الخَرابِ
واعتَلوا الغَيمَ الدَّاكِنَ.
بَكى الضَّريرُ
وأجهَشَتْ بكفَّيه مَواسمُ الرّؤى
قالَ:
قَد أفشى المَوجُ سِرَّ السّرابِ
يَكونُ الخلاصُ حينَ يموتُ الترابُ
فلا بدَّ من قيامةٍ
قَبل أنْ تَتَخشَّبَ الغُيومُ.

●●●●

قصيدة مخمورة

أغفُو مِثلَ أشجارِ الغَابةِ
لَكنّي أحلمُ أكثرَ مِنهُم
تَجِدُنِي أبحَثُ فِي أكتَافِ المَوجِ
عَن عُنُقِ الرّيحِ
كَي أطوي غَاباتِ السّحابِ
فوقَ فِراشِ الحُزنِ
أبحثُ فِي سِجنِ البَحرِ
عَن وردةِ الفَانوسِ
وَعَن نَايِ مُتَعَثّرٍ
مِثلَ قَصيدةٍ مَخمورةٍ
أبحثُ في المُدنِ الأخرى
عَن زَهرةِ المَطرِ
تَنامُ عَلى سَريرِ البَحرِ

وَأحلُمُ بِغُيومٍ تُمطرُ تُوتًا
تُمطرُ عُشبًا
وَمواعيدَ لِنوافذِ الانتظارِ.

أجِدُ جَسدي الطّينِيّ
يَقِفُ عَلى حُدودِ النَجمةِ
يُصبحُ رَأسي بَابَ هواء
تَعبُرُ عَيني نَوافِذَ عاريةً
وأجلسُ حَدَّ الصَّلاةِ
لأعُودَ إلى العَاصِفةِ
كُلَّ مَساء
مِثلَ جِهاتٍ دونَ خُطى
فَيغفُو قَلبي
في كَهفِ الصَّلصالِ
أتُوبُ مِن الحُلمِ
وَأهمِسُ لِنهرِ الغُرباء
خُذوا مَزاميرَ الرّحيلِ

وَدعوا زُهدَ المَوتِ لِي

لَحظةَ الانشطارِ.

تَغتَسِلُ الفَراشَاتُ بِالمرايا

والأجنِحةُ قُضبانٌ لا تُدرِكُ الظلَّ

يَمتدُّ صَوتُ الشَّمسِ أبيضَ

أخفي النَّهرَ في جَيبي

يَموتُ التُّرابُ وتَهجعُ قَبيلَتي

أرتَدي الغُيومَ

وَهُم يَبتلعونَ الوَقتَ

أهدَروا المَطرَ فَهاجر الفَجرُ

وأتاني حَديثُ المَاء عَاريًا

تَحوَّلَ حُزني إلى مرآة عَتيقة

وَبكى الطَّريقُ كَثيرًا

أنا خَلفَ حُلمي

أقايضُ كُوةَ المَوتِ

بِماء الاستِغفَارِ.

دَخلتُ جَلدي المَغزُولَ

بِلا رَأسٍ

تَدلَّى وَجهي

إلى حِضنِ الأَرقِ

كَي أنامَ

تَحطَّمتْ مَرايا الرَّمادِ

فَبَقيتُ

في رُفاتِ الجَمرةِ وَحدي

كَغيمةِ ثَلجٍ

حينَ غَفوتُ

والتَحَفتُ مَقبرةَ المدينةِ

استيقظتُ والنَّاسُ مَوتى

كَانوا عَلى شَفا مَوجةٍ مُتشردةٍ

وَقربانٌ

هَذا الوَجعُ حَقيقيَ

مَا زِلتُ فِي مَأتمِ

أتلو تَراتيلَ الإِمطارِ.

أوصاني الرّصيفُ فتَاهَتْ خُطوَتي
وَأسلمتُ زادي لِلدَربِ
فَوَأدَ عَيني
دَفنتُ وَهمي
تَحتَ رِيشِ الوَقتِ الراقدِ
جَلَدَني حَارسُ المَركَبِ
بِنارِ الظّمَأ
يَتَسلَّلُ في سِردابٍ يَقيني
فَراغًا بِحجمِ مَقبرةٍ
أرحلُ عَلى بُعدِ خَيبةٍ
وَبِضعِ رماحٍ
وأهبطُ على مَقرُبةٍ
من نوافذِ الخَوخِ
وَمِن نَايٍ يَحترِقُ
لِهذهِ الظلالِ جُوعٌ بأذيالِ
لِهذا الجُنونِ تَقاسيمُ الماء
وَعتمةٌ بِلا أسوارٍ.

●●●●

قلبُ الصَّغيرِ حَزينٌ

حُدودُ الوَتَرِ يَرسُمها

الماءَ المَبحوحُ

فوقَ القَوسِ

حَتى مخالبِ القلقِ

قالُوا :

هُنا يَفرّ النّاسُ

من ظِلالِهِم

هُنا شَجرُ السّدرِ

يَبحثُ عَن البُوقِ

بَعدَ أربعَ عشرةَ ليلةِ

مُنتَظِرًا

لَمحتُ البَحرَ

سَيلاً مِن جَرادِ

يَا اللهُ
ألا يُزهِرُ كُلَّ هَذا الصَّراخِ
خلفَ نُعُوشِ الصَّمتِ
فِي الغَيمِ زَنابقَ.

قَلبُ الصَّغيرِ حَزينٌ
بِضفائِرَ مِن عَصافِيرِ
وَصَهدُ الوَجعِ مُبعثَرٌ
يَمتدُّ جَدائلَ مِن أنينِ
وَالطفولةُ تَغفو
خَارجَ الدَّروبِ
تَتَناسَلُ كالفراشاتِ
فَوقَ زَهرِ الطّينِ
أيقظَتْهُ الطيورُ الرَّاحلةُ
لا تنتظرُ أنْ يَلدَ الحَطبُ
بَراعمَ خمريةِ

ولا أنْ تُشرِقَ
مِن مُواسِمِ الخَيباتِ
شَتلةُ ياسمينٍ.

بِالقُربِ مِن وَادي المَوتِ
يَجلسُ الراحلونَ مَعصوبي المَصيرِ
بَينَ رَاحَتيِ الأَسَى
كَأَنَّهُم فِي حُرقةِ الوَقتِ
فَجرُهُم ضَريرٌ
لَيسَ لَهُم مَوتٌ آخرَ
وخُطاهُم مَبتورةٌ
بَسطوا أرواحَهُم
فِي غَبَشِ المَسافَةِ
كَانوا رِجالاً
مَزّقتْ الغربانُ عَوراتِهِم
ونساءٌ حُفاةٌ بِلا ذاكِرةٍ
تَكَوّموا أمامَ عَتبةِ اللهِ

يَتضرعونَ

وَكُفوفُهم تَبكي

اقتَرِبْ...

اقتربْ ببطء

ما الذي تراهُ ؟

نعم...

هذا رمادُ قَلبي

يَرتجفُ حُزنًا.

●●●●

ليلٌ لا يمضي

هذا اللَّيلُ لا يَمضي
فَجوةٌ هُوَ في الوَقتِ
رُكامُ السّحبِ يَخنقُ الرّؤيا
وَفي كَفّ الريحِ
يُراقصُ الأفقُ أرتال الشُّحوبِ
يَتجرعُ مُرّ السّهاد.

اللَّيلُ ضريرٌ فَكيفَ يمضي
اللَّيلُ مَحمومٌ يَغزوهُ الموتُ
لَم يَعُد في الزَّمنِ المَقتولِ وَقتٌ
تَجري الأشجارُ نَحوَ التّلالِ
يَقتَادُهَا المَوجُ نَهراً مِن رَماد.

في صَخَبِ الفَجرِ المُلبَّدِ بِالمِدادِ
أشعاري أحلامٌ مِن شَمعٍ أسودَ

ما إنْ تَرى وَجهَ الشَّمسِ
تَذوبُ فِي شُهُبِ الصَّباحِ
فَأتركُ قلبي فِي بيادرِ الحَصاد.

لَيتَ لِلحُزنِ بَابًا يَعلُو فِي النَّهش
لَيتَني قَطرةُ ندىً عَلى خَدّ النَّعشِ
لَيتَني هَديلاً يُكَحّلُ شَوكَ الشرشِ
فِي غَفلةِ انتشَاء الوَرَقِ
أتلفتُ القَصائدَ
وَأعلنتُ الحِداد.

عَزمتُ الرّحيلَ
أيُّها البَاقونَ فِي صَمتي
حِينَ تَمّرونَ عَلى ذَاكرَةِ الظّلالِ
لا تَحسَبُوا أنّي انكَسَرتُ هُنا
قُولوا هُنا كَانَ
وَلِلمَوتِ عَاد.

●●●●

مَرايا الحَطَبِ

قَدْ تُرديه مَسافةُ نَايٍ
قَدْ يَنسَدِلُ الخطوُ وَتَلُوكُهُ الرّمالُ
لَكن عَلى بُعد ظَمَأٍ منها
عُثِرَ عَلى أوَّلِ مَوجَةٍ يَتيمَةٍ
خَبّئَ جَداولَ الصوتِ
خَلفَ صُورِ العَتمَةِ العَتيقةِ
وَنَثرَ نَكهةَ الحُزنِ
فَرحَلَتْ البَساتِينُ
إلى تُرابِ المَسافَة
لَكنَّهُ مَوجودٌ هُناكَ
فِي فَراشَةٍ تَسكُنُ أغاني المَطَرِ
تَحتَ القناديلِ البَاهتَةِ
يَضعُ يَدَهُ عَلى قَارِعَةِ الرَّمادِ
يُلوّحُ بِالماء للزعترِ الغَافي
خَارجَ الرّيحِ.

يَعبرُ في تُخومِ الهَشاشةِ
يَحملُ قَلبَ طفلته
سَلكَ دَربَ الرّياحِينِ
كَانَتْ الخُطى تَضِجُّ بِالجُندِ
وشَجَرُ الطَّريقِ أضحى
قرمِيدًا يَنكَمِشُ
السّياجُ قواريرُ رملٍ مُتخمةٌ
الصَّمتُ مُنقسمٌ على ظِلِهِ
انتَهى الوَطَنُ
فجأةً تَتَعرّى غَابةُ الزَّجاجِ
وَيعوي الرّمادُ الأخضرَ
يَلوي غُرابُ المَقابِرِ الوقتِ
من رَأسِهِ
لازَالَ هَارِبًا
تُلاحقَهُ عُيونُ القَتلى
تَحتَ الأراجِيحِ.

سَألَتْهُ مَن سَيرثُ البُكاءَ وَلونَهُ
قَالَ: مَن يَأكُلُ الضَّوءَ نيئًا
الضَّجيجُ يُصفقُ لِلمناديلِ
هُوَ هُناكَ
في نَعناعِ المَجانينِ
يَطوي وَجهَهُ وَيجمعُهُ
يَمضي إلى شاطئٍ لا يأتي
يَتبعُهُ غَيمُ الطفولةِ
هُوَ هُناكَ
يُمشِّطُ ضَفائِرَ النَّوارِسِ
انتظرتْ أنْ يَغشي النَّرجِسُ المُرّ
عَلى لَونِ المَاء
لِتموتَ في وَريدِ النَّهارِ
قُربَ رُفاتِ المَصابِيحِ.

عادتْ مِن دُونِ صَوتِ المَطرِ
كَانتْ تَأبى الكَلامَ
الخُطى تَدفِنُ دَربَ الكُرومِ

نِساءُ الفَجيعةِ يَنتاسَلنَّ فَراشاتِ
والخُيولُ تَلدُّ عَقاربَ السّمِ
تُشبِهُ الظَمأ فِي فَراغهِ
سَكينةٌ بِرائحةِ الغُيومِ
تَتَسلَّلُ كَالضَّجيجِ
قَالتْ:
هَذا صَوتُ رُوحي
مثلَ صُبحٍ يَحتَضِرُ
تَسلَّقَ عَينيهَا وَهُوَ يَبكِي
فَرَسى المَطرُ عَلى كَتفهِ
طَيراً ذَبيَحًا.

كتبتْ وَصِيتَها عَلى مَرايا الحَطبِ
حِينَ يُصبحُ الخُبزُ بِلا لَونٍ
أقطُفْ رِيشَ الأسماء
من نَافذةِ النَّارِ
وَهِبْ شَجرَ المَاء
ألفَ حَريقٍ لِيطيرَ

قَدْ مُتنا مَرتينِ
وَصدقتْ النُبوءَةُ
رَسَمَتْ سَماءَ بِقلبينِ
فَتَحَتْ عُشبَهَا
عَصرتْ عُبورَ الرّملِ
قَالتْ اسّقِ رِيحَ الشَّمالِ
تَوسّدتْ عَصافِيرَها عُمقُ الشَّهيقِ
والملائكَةُ رَقدتْ بِأجنِحَةِ نَاعسَةِ
قُربَ ابتسامةِ المُوتِ لِتَستَريحَ.

سَارَ مُتَعَثِرًا حَتى وَصلَ قَبرَهَا
كَانَ مُنكَسِرَ الخُطى
وَالماءَ المَصلوبُ
يَفيضُ عَلى الوَقتِ
العَقاربُ تَنفُثُ الرّملَ
عَلى شَجرِ البَلوطِ
تَدلَّتْ الغَابَةُ كَالرّيح حَزينَةً
تَطوي شَواهِدَ القُبورِ

اقتربْ مِن كُوة النُورِ
رَأى الصَّباحُ يَقضُمُ وَجهَ الغَيمةِ
نَاداهَا:
مَنْ أخرَجكِ مِن جِذرِ الماَء
عَقيقةٌ قديمةٌ
على شُعاعِ السّحابِ
وَرسمَ مِن إيمانكَ
نصالَ الخيبةِ
نَاداهَا مَرةً أخرى وَهُوَ يَبكِي
سَقطَ على التَّرابِ
فَهَوَتْ أشجارُ السّدرِ حَزينةً
فَوقَ الضَّريحِ.

●●●●

مناديلُ الحُورياتِ

قَالتْ لِي:

حَدّثني عَن المُخيمِ

قُلتُ:

المُخيمُ هُوَ القَصائِدُ المَنفيةُ

وَزورقُ الحكاياتِ

المُخيمُ الأرضُ الثَّكلَى

هُوَ زَهرةُ الحُبِ

فِي الفَرحِ

فَراشةٌ فِي الخَيباتِ

رَقصةُ المَوتِ

المُخيمُ وِحشةُ الحَسرةِ

ألواحُ الخَرابِ

مَلاذُ الخائفينَ.

قالتْ:

مِن أينَ يَأتِي المُخيمُ ؟

ومِن أينَ لِقلبِهِ

هَذا الطفلُ الشَّقيَ ؟

قُلت:

مِن ضِفةِ الضَّوء

مِن مَناديلِ الحُورياتِ

يَمّرّ المُخيمُ لَيلاً

يَحضُنُ قَيدَهُ

صُراخٌ وترابٌ وفراغٌ

نِصفُهُ دُروبٌ تَنبضُ بِالأفخَاخِ

وَنِصفُهُ الآخرُ

قُبورٌ فَوقَ القِلاعِ

وَزهراتُ حنّون.

فِي المُخيمِ تَتَهشَّمُ الأعناقُ

والعَويلُ بِلا أصابعِ

وَلعنَةُ المَدينةِ تَرقُصُ فِي الشَّوارِعِ
وَوَجهُ الأمّ يَهوي فِي الجِرحِ
وَالعَصافِيرُ تُحلّقُ بَعيدًا
عَن شَجرةِ الغُرباء
أسيرُ في هَذا المَوتِ
يُعانِقُني صَغيرٌ ويَبكِي
ثُمَّ يَغفو عَلى زِندي
لِذاكَ الذَّبحِ المُوغلِ
طَعمُ الشَّرفِ المَدفونِ.

هَذا دَمُنا الحَزينُ يَتَعمّدُ
هَذا الرّحيلُ رَهينُ المَاء
وَهذهِ المَوانئُ رِماحٌ
فَمَن يُرَمّمُ دُروبَ المُخيمِ
وَيدقُّ فَوانيسَ المَدى
كَي نُزهِرَ

أيَّها المَوتُ

انسَدلْ خَلفَ جُثَّتي

طِفلٌ وَضَفيرةٌ

أيَّها المُخيمُ

الأفُقُ مَثقوبٌ

وَمِن سَبعةِ أبوابٍ

دَخلَ الطَّاعُونُ

أجهَشتْ بِالبُكاءِ

قالتْ:

سَمعتُ عَن شَمسٍ سوداءَ

في أرضٍ بعيدةِ

حينَ كَانتْ النَّجومُ

بِحجمِ الذَّاكرةِ

وَضعتْ كَفي قُربَ أنفِها

يا قَلبَ أُمكَ

تَتَّسِعُ المَسافَةُ

قَبلَ أنْ تَسحَبَنِي عَينَايَ
إلى هَاويةِ
مَضتْ وَهِي تَهذي
مَلعونٌ ذَاكَ البَحرُ
مَلعونٌ.

يَعودُ المُخيمُ يَتوغَّلُ
يَتدَحرَجُ عَلى وجهِ الماء
طيفٌ يَتلوهُ وَشمٌ
فَوقَ أُمنيَةٍ
يَطلُّ المُخيمُ
مِن شُرفةِ الأوجاعِ
صَوبَ حُلمٍ حَزينٍ
لا شيءَ يُباغِتُهُ
سِوى الضَّجيجُ
فَوقَ الأرصفَةِ النائِمَةِ

لاشَيءَ

سِوى دُموعُ الراحلينَ

وَهُم يَعبُرونَ.

●●●●

مناديل الوداع

هذا الوَطنُ
رَحيلٌ مُوغلٌ في الرَّمادِ
فِي البدء كَانَ اليَمّ
كَانَ المِلحُ والماءَ
وَعندَما نَفخَ الرّسلُ
مَواسِمَ الرّملِ
زَرعَ الرِّجالُ الحَياةَ
وَما زالوا في سَفرٍ.

امتَشَقَتْني فِضةُ المِلحِ
أغفُو عَلى كَتفِ المَسافَةِ
تَعبُرني نَوافذُ الحَيِّ
هَذهِ الأشلاءَ أزِقَةٌ للخَرابِ
هَكذا بَدأتْ الحِكايَةُ

زَعترٌ حَافِ عَلى وَجهِ المَاء
وَالنّهايةُ أقدامٌ غَائِرةٌ في الطّينِ
حِينَ تَكوّنَ لَوحُ القَهرِ.

هَذهِ الشّطآنُ يَقظى
والمراكبُ تَوابيتُ
وَبكاءٌ كَثيرٌ
لَا يَتّسِعُ الزّورَقُ لِضفّةِ الوَقتِ
وَالنّهرُ خُيوطٌ تَرتَعشُ
يَعبُرُ الصّيادونَ فُرادى
بِأعناقٍ مِن مَطرٍ.

الآنَ أصبحَ اللّحدُ مُنصَهِرًا
مُكتَمِلَ اللّوعَةِ
تَتَقلّبُ الرُؤيا العَتِيقَةُ
فَوقَ جِهاتِ المَتاهَةِ
قَالوا لَهُم:
هَذا سِرّكُم مُعلقٌ مِن جُمجُمَتِهِ

فَدَخلوا

تَصفَّحوا الصَّدى المُنكَسِرَ.

كَانَ الصَّباحُ

أضيقَ مِن تَعبِ الضَّوء

صَوتُ المَدينةِ يُغرِيني لِلكِتابَةِ

أحملُ بِساطِي وَأمضِي

وَقبلَ أنْ تَغرقَ عَينايَ

فِي تَعالِيمِ الكِتابِ

غَفوتُ هُناكَ

بَينَ السّهلِ وَريشِ القَمرِ.

وجهُ المَدينةِ مَصلوبٌ

عَلى لوحِ القيامةِ

رُبما فِي وَجهِ النَّارِ

أنشقُ رغيفًا وكفًا

رُبما صُبحًا وبحرًا

رُبما أُريدُ وَطنًا كَما أشتَهي

رُبما أهجُرُ جِلدي

وأصيرُ زَهرًا

رُبما طيرًا وأكثرَ.

ليسَ سِوايَ

أشَرّعُ حُزنِي لِزهرَةِ الأسى

لَيسَ سِوايَ

وَهذا الخَرابُ والطينُ يَئِنُّ

تَلتَحِفُني الفَاجِعَةُ

وَيَسيلُ صَدى الحُزنِ

دَمعًا وغبارًا قدرٍ.

الحكاياتُ العَتيقَةُ

أضحَتَ بُكاءَ البُيوت

مَسامِيرٌ في الصَّدورِ

الشُّرفاتُ مَحطاتٌ مَازالت تَنتَظِرُ

الأحِبَةُ مَدافنٌ
تُزاحِمُ ظُلمةَ الخَرابِ
وَدفاتِرُ الصّغارِ طَمَرَتْهَا
أوراقُ الشَّجرِ.

هَا أنا
تَسكُنُنِي الوجُوهُ الغَائِبةُ
تَتَكَسّرُ في جَوفِ صُراخي
هَذهِ بَقيَتُنا مُنتَصِبَةٌ
كُنّا بِلا رِمالِ
وَالنَّوافذُ مَحطاتٌ أوحشَتْ
والأكُفَّ الهَزِيلَةُ
مَناديلُ الوَداعِ
واللَّحدُ أخضرُ

وَحدي

تَعبُرني البِلادُ المَقتُولَةُ

أطوفُ على قَبائلِ النَّارِ

فَيشهقُني رَحيلُ المَساء

يأخذُني عَارِيًا إلّا مِنكَ

الخُطى دُروبٌ عَاقِرَةٌ

فَأينَ المَفرّ ؟.

••••

مواقيت ساقطة

(١)

لوْ لمْ أكُنْ ظِلاً مُتعَبَا

لَتمنيتُ أنْ أكونَ ماءَ

كيْ يَتوارى النَّدى

فِي كُوةِ المساء

وحينَ تلوحُ قَطوفِ الفُصولِ

كَشطرِ مَسافةِ ثملةَ

وَيضيقُ بِي حُزني

تَأذنونَ لي بِالبُكاء.

(٢)

ارتَميتُ فَوقَ المَواقِيتِ السَّاقطةِ
كَيْ أقتلِعَ وَشمَ المَطرِ
المَسافَةُ أبلغُ مِنْ نَخلتينِ
والرّملُ أرحَبُ مِن الشَّجرِ
أيقظتنِي الطُّيورُ الرَّاحلةُ
يا راصدَ المركِبِ لا تنتَظرْ
فلا أحياءَ هُناكَ
والريحُ استحالتْ حَجراً.

(٣)

يَفرّ ظِلي المُتَشققُ
مِن ثقلِ أطرافِي
نَحوَ أكفِّ البيادِرِ
كَغبارِ الماء المُنكَسرِ

قالوا:

تَريثْ في الغُدوِ يا فتى

فلا موعدًا للكفنِ

ولستَ في سفرٍ

قلتُ:

سأقطفُ لكم منْ حُزني

حبةَ دَمعٍ تحتضرَ

لأكتُبَ القافيةَ الأولى

قبلَ ولوجِ القبرِ.

(٤)

ذاتَ ضبابٍ

سقطَ الوَترُ سَهوًا

بينَ قُبتينِ

فكيفَ يَكتملُ القَوسُ

إذا ما بَكتْ الأحجَارُ

كُلما عَزفَ المَوتُ
ولاحَتْ أفواهُ المَشنوقِينَ
كَمِحرابِ الصَّلاةِ
عَلى الرِّيحِ المُحتَرِقَةِ

(٥)

أبصرتُ أصابِعي
تكتبُ آخرَ غَيبوبةِ للساقيةِ
والضَّوءَ المُتوثّبُ في نَعشي
يَقضمُ صَخبَ المَسيرِ
حينَ أويتُ إلى الصَّمتِ
ضاعَ قبري.

●●●●

نتوسّدُ مَلامِحَ الفُصولِ

تَعودتُ

استِنبَاطَ تَرانِيمِ الابتِهالِ

مِن وَقدِ الرّيحِ

حِينَ القافيةُ تندثرُ

وأنْ أقتَسِمَ أورِدَتي

مَع القَمرِ المُنتظِرِ

أتَيَمَّمُ بِالغَيمِ المَعصُومِ

لا أبارحُ فَجوةَ الوَجعِ

حَتى يَقرأ اليَمَّ أكفَّ العَابرينَ

ماذا لَو هَربتْ شَواطِئُنا

مُنكَسِرَةً

تَبحثُ عَن نَوارسٍ

لا تَأتِي

تُعانِقُ ضَجيجَ الصّورِ
والأسماءَ
تَرتَديني حَباتُ الرّملِ
نَبتٌ مِن ريحٍ
خارج المجرةِ المتخثرةْ
يَجثُمُ النّورُ في قَعرِ العَتمةِ
أقلِّبُ لوثةَ الرمادِ
أقَشِّرُ في الموتِ وترًا
وأبحثُ في استكانةِ الغَيمِ
عن ماء يستوطِنُ
عَينَ الفَجرِ
مَاذا لَو ظَلَّ هَذا السّوادُ
يُزاحِمُ صَلاتَنا الحَزينَةَ
ويقرأُ فَوقَ أكُفنَا
أوجَاعُكُم حِممٌ
وبياضُكُم بُكاءٌ
لا مَلامحَ لَنا

نَعبرُ هياجَ الدَّربِ

أُوثِقُ مِعصَمَ الوعُودِ المُغلَقَةِ

الغابةُ الكئيبةُ تَحتضرُ

وخلفَ الأحلامِ

تَسيرُ قَوافِلُ الحُزنِ

تَبتلُّ مَرايَا الخُطى

وَيَتَرَهَّلُ المَطرُ

مَاذا لو كَفَّنّا صورَ الرِّيحِ

نَثَرنَا بَرقَ الشّغفِ

وَتوسّدنا مَلامِحَ الفُصولِ

مازِلنا نَتلوَّى

كَالوَترِ العَاري

فَكيفَ نُقايضُ هُبوطَ المِلحِ

بِوأدِ الماء

في الخَواء المُمتَدِّ

بينَ صَفصافِ الأولياء

واستفاقَةِ النَاقةِ

أفتحُ نَافذةً فِي جَسَدي المَسمولِ

أستقصِي بِساطَ الموتِ.

●●●●

هذه ليلتي

مُتغطرسٌ هذا اللَّيلُ
للعابرينَ جوفَهُ..
يَتخاطفونَ كُؤوسَ الشَّكوَى
تُثمِرُ أغصانُ الحُزنِ استحالةً
فإنْ جنَّ الصَّباحُ
تُدهِشُهُم الحَسراتُ.

بَعدَ أربعةَ عَشرَ مَوسمًا
لَمحتُ القمرَ فَرسمتُهُ
حَفظتُ مِن حُروفِ الخَريفِ
نُواحَ الشجرِ
ومِن الرّبيعِ بُكاءَ المَطرِ
والشوقُ كَالدلو
يَقذِفُنِي بِالذكرياتِ.

يا ليتَ لَيلِي صَانَ مِيثاقي
وِصالٌ كَانَ..
فِي جدبِ المُنى يُنبِتُ
جرحًا لو تدرونَ
جذوةً من الحنينِ
على سَفحِ الانتظارِ
تُنبتُ البَتلاتِ.

اللَّيلُ سَالَ عَليّ حِكاياتِ
مُكحَّلةً بِحُزنَينِ
ما أكثرَ الأوجاعَ إنْ بَخِلتْ
بِكَ اللَّيالي
أيَا حُلمًا أُلملِمُهُ
مَا أقسى العودةَ
هي ليلةٌ نَذوي بَعدهَا
فَما أسرعَ اللحظاتِ.

لَم تَهزمْ الحروفُ أطرافِي
وما كانتْ سُيوفُ الصَّمتِ
فِي صَبري فَتهزمُهُ
هي لَيلتي بَنيتُ رُواقَهَا
وشيّدتُ بِالدمعِ الصَّفحاتِ.

أنا راحلٌ قَد كنتَ أقربَ
مِن وَريد قَصائدي
واليومَ أنتَ أبعَدُ
مِن ذُرى الأبياتِ.

●●●●

هل من منتظر

يَغفو النَّارِنجُ العَتيقُ

على زَلَّةِ السَّوادِ

وَيَتجرّعُ القَصيدُ قَبرَهُ

حِينَ يَنسدلُ الشَّوقُ

ثَوبًا بِلا جَسدِ

كَمواويلِ الظَّمأ

فَوقَ زَفرةِ الريحِ

قالَ:

أنا المَعوزُ لَكنْ

لِكتابِي سَبعينَ نَورسًا

لَم تَسجِدْ لِأحَدِ

لَكنَّها أنجَبَتْ لَهُ

شَجرةَ تينٍ وهاجرتْ

رَحلَ يبحثُ عَنها
في غابةِ الصّنوبرِ
كَانوا هُناكَ
يُلملِمُونَ الرّمادَ
وينثُرونَ الزَبَدَ القادِمَ
مِن ساعاتِ الاحتضارِ.

لَم تُطاوعْهُ المَسافاتُ
فأضاعَ سِراجَ الخُطى
كَأنَّ الدروبَ تَأبى
بَكى فأبكَى الشَّجرَ
حِينَ اشتدَّ بِهِ الوَجدُ
وأنفاسُه تُولّي شَطرَهَا
خَاصرةُ النشيجِ
صرخَ: قَدْ تَعبتُ يا صاحِ
تَشقَقَتْ عَيناهُ
وَنبتَ فيهِما لَونُ الموتِ

يَقولُ الرّاوي
إِنَّ الخُيولَ الزَّرقاءَ
عَلى بُعدِ صَرخَتينِ
مِن ظِلّ القرطاسِ المَكلومِ
سَجدتْ تَنتَظرُ القيامةَ.

●●●●

وجه الأضرحة

خلفَ الأضرِحةِ المُتهالكَةِ

تَرتَعشُ الدُّروبُ

فَتضيعُ الأغصَانُ والأسماءَ

والأحزانُ البَيضاءَ

تَنوحُ الأرضُ وتَلوكُ الحزن يدثرُها

كَجرحِ العُيونِ وَصرَخاتِ القُبورِ

مَخاضٌ يمزّقُ رَحمَ السَّماءِ

يا أحمدُ

كيفَ نقبضُ بِمسلكِ الطَّيفِ المُتعرّجِ

عَلى نافذةِ المَوتِ ونَحنُ عُراةٌ ؟

وهُم يُنازِلونَ طَعمَ البَارودِ

وَوِحشةَ الرّيحِ البارِدِ.

القتلُ كَثيرٌ

والجُثَثُ تَستَجدي كَفنًا

وَحُفنَةَ تُرابٍ

تَتَراكَمُ العُيونُ المَالحةُ على الطُّرقاتِ

والموتُ يزيِّنُ الأرضَ ولا يموتُ

تَرتَدي النِّساءَ السَّوادَ

وتَغرقُ النَّوارسُ في غَفلةِ البحرِ

لا تُخطئُ الشَّظايا ذبحها نَحوَ الصَّدورِ

أطفالٌ ذابتْ أكفُّهُم الصغيرةُ

اقتلْ ما شئتَ

فالدَّمُ على الحِممِ انتصَرَ

واللَّهبُ لِلنورِ تالِدٌ.

يَتناسلُ اللَّيلُ شَهيدًا عن شهيدِ

وأنتِ مدينةُ الموتِ

تَفرُّ الدَّروبُ إلى المَلاجِئِ

المَوتُ في تِيهِ

والمَقابِرُ تَبحثُ عَن الموتى

أينَ المفرّ

الوجوهُ يَنابيعُ الطفولةِ

والجدرانُ أضحتْ كُوةً لِلذبحِ

يَبكِيني سِحرُ القبورِ فأتوسّدُها

يا اللهُ

ارفعْ عنّا هَذا الضَّيمَ الحَاصِدَ.

شَوارعُ المدينةِ حُزمةٌ من نارٍ

أبوابُها مُمزَّقةٌ تَستَجدي ابتِهَالاً

أنا وَظِلّي فِي هذا اللَّيلِ

نَستَمطِرُ المَوتَ

حيثُ حِممُ الخَطايا

تَغتَسلُ بالأسماء

يَتمدَّدُ ظِلي فَوقَ رَمادِ المَدينةِ

ليسَ في صَدري سِوى حِفنةُ أوجاعٍ

يَمضُغُني الجَفافُ بَينَ فَكّي الرّكامِ

حِينَ تَعوي الرّيحُ
يَبكينِي الّذي هَامَ بِحُزنِي
وَنامَ غيمةً عَلى عُشبِ قَلبي
تُبكينِي تِلكَ الوجوهُ الزَّرقاءَ
مَقهورةً بِلا مَأوىً بِلا عَاضِدِ

استَفحَلَتْ الخَطايا
قَدْ أغشَى السَلطانُ جَشعٌ مُستَطرٌ
غيلانٌ بليدةٌ فِي هَزعِ اللَّيلِ
تَرسُمُ نُقوشَها الدَّاميةُ
على الستائرِ الآدَميةُ
بِالقتلِ يَأمرُ السّلطانُ
فَيحبِسُ اللهُ المَطرَ

تَتَعرّى المَدينةُ قَسراً
لِفيالِقِ الجُيوشِ المُنهزِمَةِ
وَتُلملِمُ جَسدَها المُستباحَ

وَدُروبَها المَنكوبةَ وَزهرَ الياسمينِ
ظمأُ المدينةِ لربيعها
يَسيلُ عَلى جُدرانِ الرّعبِ
يَحزِمِ الجلّادُ قَبضتَهُ
حَولَ عُنقِ الوطنِ المُضمَّخِ بِالعَتمةِ
يَكتِبُ مَوتَ الرَّعيةِ
وَيسقُطُ في الخَرابِ الخَالدِ.

وحدَنا في التَّأويلِ نَجثُو في الحُطامِ
نُرابِضُ في جوفِ النارِ
سَفحنا العُمرَ سَرابًا
كَشَجَرِ الزَّقُّومِ طَعامُ الأثيمِ
نُقيمُ للموتِ كَرنفالاً
في السّواقي المَهجُورَةِ
أضَعنَا فَهرسَ العَدلِ
وسِياطُ الظُّلمِ فينا تَمخرُ
صباحاتُنا مِئذنة وألفُ مِدفعِ

ولَيلُنا أضيقُ مِنَ القبورِ

يا ربّ
هَا نَحنُ في بَابِكَ نَحمدُكَ نَتوسّلُ
قَد أسرَى حُزنُنا وضَاقتْ حَياتُنا
نَستجيرُكَ فَأنت المُجيبُ لِكلّ حَامدٍ.

●●●●

وردةٌ رصاصيةٌ

فِي البدء
كانت فوّهاتُ الأرضِ
مَفتوحةً على يقظةٍ
عَطشَى لِلأحلامِ والجُثثِ
نَقفُ حَدَّ المَوتِ
نُحصي الخَطايا
ونَبدأُ فِي العدّ
مِن أوَّلِ الخَندقِ.

تَتَلوّى الأورِدَةُ
كَالأفعى فِي حَقلِ كبريتِ
أنُوصِدُ العُيونَ بِوجهِ المَوتِ
أم نُوصِدُ عَينَ المَوتِ
نَتلو بِعيونٍ مُغمَضَةٍ

يَهجَعُ اللَّيلُ

مُتخَمًا بِالتوابيتِ

يَنتظِرُ الصَّبحَ

أنْ يُورِقَ.

في البدء

كانتْ أوراقُكَ تَتَفتَّحُ

عَلى المَدى

نَاعِمةً

تَنسابُ مِثلَ الغَديرِ

فَتُصبِحُ تَراتِيلَ حُزنٍ

على شَجرِ الريحِ

كَأنك تسيرُ بِلا قَدمينِ

بِلا كَتفينِ

تَخلعُ ذَاتَكَ مِن التَّعبِ

والطُهرُ فِيكَ

ما عادَ يَخفُقُ.

آهِ يا قَصبَ الدُّموعِ
لَم تَطَأ عَيناكَ كُحلاً
قَالوا الأبيضُ فِي الكفنِ
جُزءٌ مِنَ النُّورِ
وَهُم كَاذبونَ
إنَّنا نُودعُ احتراقَنا
نُودعُ فِيكُم
اشتهاءَ الحياةِ
والأمسَ المُشرقَ.

فِي البدايةِ
كانتْ رِياضُ الأملِ
تَبكِي النَّرجسَ الحَزينَ
عَلى حَواري المُخيمِ
قَبلَ النكبةِ الأُولى

أرى الوَطنَ
شُقُوقًا شَاخِصَةً تَنوحُ
وَتَلطُمُ الّلوعَةَ
فَتَتكسّرُ الأصواتُ
في مَسامعِ الكُثبانِ
عِندَمَا اجتَمَعتْ فِرقُ المَوتِ
على جُثّتي
احتميتُ بِرَملِ الأنبياء
يَعبُرُ جَسدي كَالبيرَقِ.

سَألوني عَن زَهرةِ البُرتقالِ
وَعَن المَقابرِ
نَصبوا عَلى صَفيحِ المُخيمِ
أوتَادَ المَوتِ
انتَظَروا أن يَتَشقّقَ
قِشرُ الشَّجرِ
وَأنْ يَتَفصّدَ البُخارُ الأصفرُ

جهّزوا المَشانِقَ

لكِني تَفيّأتُ الطُّهرَ

مِن ثَدي أُمي

ولَم أمالِقْ

....

إذا رغبتَ في شِراء تَذكَرَةٍ

عَليكَ الانتظارَ

لِلمجزرةِ القَادمةِ.

●●●●

ولجتْ شَهقَةُ الاندِفاقِ

في صَخبِ المَقامِ
المُلَبّدِ بِالحَريقِ
نَاشدتُ شُعاعَ المَّطرِ
ما يُعينُنِي عَلى الرّباطِ
الدَّربُ بَاردةٌ
فَمَنْ وَهبَ الفُصولَ وِلادتَها
ومن أوقعَ النَّارَ
خَلفَ فَوضَى المَوجِ
أدبرَ الصَّباحُ
في اللَّحدِ الكامنِ
والماءَ يَصرَخُ حَافِيًا
خلفَ البَشرِ
يَابسٌ غُصنُ القَمرِ
كُنتُ أَلِجُ سِدرةَ الفَتحِ

قَبلَ اشتعالِ الريحِ
بَسطَتْ زِندي عناقًا
تَرتَشِفُ مِن ثَغرِ العُشبِ
نقطةُ ضوء
في الوادِي القديمِ
انسدلَ غَسَقُ اللَّونِ
على وَجهِ الوَقتِ
خَلفَ رِداء الأنبياء
قَالوا أَنْبِئْنا
قلتُ: رَأيتُ النَّهرَ يُصلِي
تَحرُسُهُ تمَنَماتُ الرّيحِ عَلى التَّرابِ
كُنتُ أحتَسِي لَبنَ الموتِ
وَالعجوزُ عَاريةُ البِساطِ
تَتَلوّى جُوعًا قُربَ المئذنَة
تُشبِهُ مسكَ الأولياء
نَاديتُ عَليها:
أَمَّاهُ أيّ سِرٍّ فِيكِ

وَمَا لَونُ النّورِ الرَّاقِدُ
فِي تَوبَةِ الرّيحِ
قالتْ:
قَد ابيَضَّتْ عَينَايَ
احملُ قَهرَكَ فَوقَ شِراعِ الخَيلِ
وتَذكَّر إنْ كُنتَ في شَكِ
لَم يَكُن مِن قَومِكَ
فَتوسّمَ الغيثُ
ليسَ لكَ إلّا مَا سَعيتَ
قَالوا: يَا قَلبَ أُمِّكَ
لا تَقصُصْ حُزنَ الشَّمسِ
عَلى الأجسادِ الظمأى
فَيَنكَسِرُ الضَّوءَ
قُلتُ : يا أَبي
هَذا صَريرُ قَلبِي
فَوقَ التَّنُورِ يَفورُ
قَالَ: يَا بُنَيَ

قَد أرضَعَتكَ جَدَّتُكَ

دَنَا يَومُ القصاصِ

فَلا تَمتَشِقْ زَبدَ الخَطايا

لَملَمتُ رَحيقَ المَوتِ

وَلجت شهقة الاندفاقِ

كَي أمنحَ جَنازَتي وِلادَتَها

لَكنَني يا ربّ الضَّعفاء

وَاهِنٌ في أمري

هَبْني نافذَةً للخَلاصِ

كَي أنسدلَ آيَتانِ

واحدةً لنبوءةِ الخطايا

واحدةً لِنصلِ بترِ غارِ القبيلةِ

قَد فَديتُ الفُلكَ

بِذبحٍ كَبيرٍ

فَمَن يَقبضُ عَلى اليَقظةِ

في السَّقوطِ الأخيرِ ؟.

● ● ● ●

ومضات قدرية

(١)

أوصَدتْ الأحلامُ أبوابَها

فَتَساقَطتْ أهدابُ العُمرِ

تَدوسُها النَّسماتُ الحَزينةُ

(٢)

مِنْ الكُوَّةِ الصَّغيرةِ

أسترقُ النَّظرَ إلى طائراتِ الورقِ

وهيَ تحلِّقُ

بِعينينِ تُكبَلُهُما القُضبانُ

(٣)

أحفظُها عَنْ ظَهرِ مَطرِ وجَسدِ
... غابةُ المَوتى

(٤)

لأنَّ تلكَ المواسمُ
كانتْ عاريةً
والبساتينُ أوراقٌ صفراءَ
تساقطتْ أمعاءَ المدينةِ

(٥)

كيفَ لي أنْ أُدثِّرَ ذكراهمْ
وأُظلِّلُ قبورهمْ بِجُرحي
ومِنجَلُ السلطانِ لا يَرى
سِوى الشُّجيراتِ المطلَّة مِنْ وريدي

(٦)

يتآكلُ الضَّوءَ منْ أطرافِنا
كمْ أخشى أنْ يَنتهي الحزنُ
قبلَ أنْ أُحلِّقَ كَهمسِ الحكاياتِ
وأغفو مطرًا بأهدابِ النوارسِ

(٧)

يا وطنًا يَنتعلُ الدِّماءَ
ويَقطفُ رَعشَ الضوء
كيفَ نُقَبِّلُ تُرابكَ
يا وطنًا بلا ضفائرِ
كيفَ نَعشقُ ظِلالَكَ
أيُّها الوَطنُ الكَفيفُ
كَيفَ نَراكَ ؟
وأجفانُنَا تَمضَغُ المِلحَ
وملامِحُكَ تقاطيعٌ عَمياءَ

(٨)

علی بُعدِ وشمِ من النَّبضِ العتيقِ
عثرتُ على يَقظتي
وَضعتُ يَدي على قارعةِ الرَّمادِ
ألوِّحُ بالماء
كيْ يَسيل صَدى الحُزنِ
وأتلاشى مِثلَ أجنحةِ المطرِ

(٩)

اصعَدْ لا تلتفتْ
خلفكَ البحرُ يَحتَضِرُ
وكلُّ الجهاتِ رِماحٌ
تَنامُ في عَينِ الذَّاكرةِ
انجُ بنفسكَ
قبلَ أنْ تغتالكَ
عورةُ الحروفِ

(١٠)

تَتعَّرى المدينةُ مُرغَمةً

لِلفيالِقِ المُنهزمةِ

فهاجتْ الغِيلانُ البَليدَةُ

في هزعِ الليلِ

يقيمُ السلطانُ طقوسَهُ

فيحبسُ اللهُ المطرَ

في الفجرِ

تُلَملِمُ المَدينةُ جَسدها المُنهكَ

وَدروبَها المنكوبةَ

وتمضَغُ لَحمَها

(١١)

قدْ بلغَ الظمأُ الانشطارَ

والجوعُ المكلومُ في اشتدادِ

يا أُمِّي

الألمُ ليفٌ كبريتِيّ
يَمتدُّ حَبلاً حَولَ عُنقي
والعُقبانُ السّوداءَ تَنهشُ عَيناي
يا أُمِّي
قالوا إنَّ الكفنَ الأبيضَ نورٌ
هُمْ كاذبونَ يا أُمِّي
كَاذبون

(١٢)

يا أُمِّي
الموتُ يسيرُ في المدينةِ
بلا خُفَّينِ
كَعصفورٍ مُبلَّلٍ بِالخوفِ
يَرتَعِشُ غُباري...
يا أُمِّي
يضيقُ المَاءُ عِندَ كُوَّةِ الحَياةِ

ويمتدُّ غُصنُ الزَيزَفُونِ
فَوقَ جَسدي كَفنًا
دَخلتُ قَبري فرأيتُ
قلبي في قَعرِ الضَّوء
يَنبُضُ حَيّا بَعدَ المَوتِ

(١٣)

يعوي الرّمادُ الأخضرَ
حينَ يتعرّى الوطنُ
وتَغفو الغابةُ
قُربَ الموجةِ السوداء
كانَ الدَّربُ بَاردًا...
وصُرّةُ القمحِ تَذبحُ النسوةَ
سرقتُ كَفِّي من حديقةِ الموتِ
لأُخَبِّئَ طريقَ الملحِ

(١٤)

فوقَ قَيدِ المدى
تَرسُمُ الرِّيحُ فَوضى
تسقطُ الظلالُ على المرايا
الذاكرةُ مرثيةٌ زَرقاءَ
وفراشاتُ القلبِ تحترقُ...
على أطرافِ العزلةِ
هذهِ الأجسادُ مقيّدةٌ
فوقَ الغبارِ
والحزنُ وقتٌ يَهبِطُ ويَضيقُ
بينَ أنيابِ الرّحى المغموم.

(١٥)

يعبثُ القدرُ بالوقتِ الرّاقدِ
نساءَ الفاجعةِ يتناسلنَّ فراشاتِ
والخيولُ تَلِدُ غَصّاتٍ ودموعًا

سكينةٌ بِرائحةِ المَوتِ
تَتَسلَّلُ كَالضَّجيجِ...
تَعالوا..
لَوْ مرةً واحدةً
كَيْ توقظَ ظلالَكُمْ
طيورُ الفجرِ.

••••

يا شام

سَلامٌ عَليكِ يا دمشقُ
يَتهادى صَباحُ الشَّامِ عَلى بِساطِ
من سُندسٍ وَدِيباجٍ
يَرقُّ مِن ثَغرِها البَنفسَجُ
للعصافيرِ حِينَ تَصدَحُ
أزهارُ النارنجِ بَاكورةُ الصَّلاةِ
والمآذِنُ آياتُ الخَالقِ تَنسَدِلُ
على الكُرومِ وبساتينِ التِّينِ
بالأسماء الحُسنى
وأكوابُ القَهوةُ شَرابُ البُنِّ
مَوَّالٌ يُعانِق الشرفاتِ العتيقةَ
والخِلخالُ أزهارُ الرُّمَانِ

عَلى ضِفافِ الشَّامِ كَتَبَ التَّاريخُ
وَغُرِسَتْ أشلاءُ الكونِ
مِن هُنا مَرّ الآراميونَ والكنعانيونَ والإغريقُ
وَظلَّتْ الشَّامُ وَجهًا طاهِرًا
مُعَتَّقًا بِفضةِ القَمَرِ
الشَّامُ لِسانُ الكَونِ
فِيها صُكَّتْ الأبجَديَّةُ المِسمَارِيَّةُ,
الآرامِيَّةُ والسَّامِيةُ
هَمسٌ يَنمُو عَلى أصابِعِ الصَّوتِ
وَعِندَ عَتباتِ الشَّامِ تَنبُتُ الكَراماتُ
فَهِي تَوأمُ الأقصى وَشَقِيقَةُ المَسيحِ
يَحرُسُها الرّحمنُ

الشَّامُ بِسبعةِ أبوابٍ
مَدينةٌ مَفتوحةٌ على السَّماءِ
وَالياسمينُ أقراطُ دمشقَ
تَغفو عَليهَا المَلائكةُ

قَاسيونَ عروسٌ فَوقَ هودجٍ مُخمَلِيَ
الأَمَويُّ مِسمارُ اللهِ فِي الشَّامِ
والغُوطةُ مليحةٌ حَسناءَ بِجدائلِ
تَمَتَدُّ بَينَ نَهرينِ
بَردى بتلاتٌ بِماء يَغسِلُ الذُّنوبَ
صَدقةٌ جَاريةٌ كَأَنَّها مِزمارُ الرَّاعِي
والربوةُ سِحرُ البَيانِ

دِمشقُ سَيدةُ المَدائنِ
حَدائِقُها خُطىَ بِلا تَعبِ
كأنَّها سِجادةُ صَلاةِ
دُروبُها وَسائِدُ الرّوحِ
تُزيّنُهَا الحَواري
كَأَنَّها قَبضَةٌ مِن نُورِ
دِمشقُ رِيمُ القبائلِ وشامَتُهَا
هِي القَمرُ العائِمُ لَحظةَ الغُروبِ
بَدرًا أَخضَرَ

الشَّامُ زَهرةُ العيدِ
بَراعِمُ خَمريةٌ
وَخَلفَ أسوارِها تَتَمايَلُ
أغصَانُ التُّوتِ والسّفَرجلُ
كراقصةٍ أثمَلَتهَا الألحانُ
كأنَّها إنجيلُ الفُقراء
مُرصَّعةٌ بِطيورِ الجَنَّة
قَصيدةٌ لا تَكتَملُ بتفَّاحِ أو محرابِ
هي وَحدَها تَرسُمُ المَطرَ رَبيعًا

الشَّامُ عَروسٌ فاتنةٌ بِتاجِ من زنبقِ
وَقِلادَتُها مَاءَ القلبِ
سَلامٌ على تِلكَ الأرضِ وَنَسغِها الطَّاهِرِ
ولِدتْ لِتَظلَّ نُبوءةُ الشَّرفِ
وللإباء إيوانٌ
مُنذُ نيفِ هاجرتْ أمواجُ الشَّامِ بَحرهَا
بَكتْ النوارسُ

احتضرَ النّهارُ واللَّيلُ رَحلَ
وتجرّعتْ القصيدةُ قَبرَهَا
خَلفَ أسوارِ الزوالِ
الراحلونَ وَحدَهُم خُطى تَائهةٌ
يقينٌ يَحتَضِرُ
وأثوابٌ معلقةٌ في السماء
والصِّغارُ يُكابِدونَ الوَجعَ
وَيُمَرِّغُهُم الأنينُ فَوقَ خُطوطِ الوَحلِ
يَنامُونَ وَهُم يَمضَغُونَ الحَسرةَ والأحزانَ

خَلفَ عَباءَةِ البَياضِ
تَتَوارى مَآثِرُ التَّرابِ المُتَوقِّدِ
يَجتثُّ أغصانَ الماء
كَأنَّما الرّصيفُ لا عاصِمَ لَهُ
كَالشُرُفاتِ المَهجورَةِ
عَناكِبُ بُلّلَوريَّةٌ تَنزفُ حِمَمًا
أضغطُ عَلى الرِّيحِ

يَدخُلُ الملحُ الأسودُ جوقةَ المَوتى
أبكِي كَفي وألقي حُزني
جِهاتِ للإيمانِ

أضحتْ المدينةُ قَلبًا حَزينًا
بِضفائرَ من عَصافيرِ
وَشراعِ مُبعثَرٍ يَمتَدُّ جَدائِلَ من دَمِ
عندَ حَافةِ الوَقتِ المَشروخِ
تَتَقشَّرُ الجُدرانُ في وِحشةِ الضِّياء
وَيغفُو الظِّلُ عَلى وَشمِ المَاء
عَناقيدُ ملحِ تُصافحُ الموتَ
في جُبِّ الظلامِ
تَفِرُ الدُّروبُ تَلفظُ الذَّبحَ
والقَتلَ ثُقوبٌ سَوداءَ
كالثوبِ الضَّريرِ يَلتَحِفُهُ الشَّيطانُ.

● ● ● ●

يا موتنا في نصالك الحياة

كنعانيونَ

مِنَ البحرِ جَاءوا وإليهِ يَعودون

مُسافِرونَ والزنازينُ رِحلتُهُم

حَزينونَ ودروبُهم صَمّاءَ

تَلوكُهُم البِلادُ بِغُلٍّ

مَعصوبٌ مصيرُهُم

بينَ راحَتيَ الأسى

منذُ أنْ أمسَوا بِلا وَطنٍ

تَهاوَتْ أجسادُهُم في المَنافِي

ومَاتوا غُرباءَ

بِلا أوطانٍ.

اللَّيلةُ يَتمزَّقُ قَلبي بَينَ مَوتينِ

عَلى مَقرُبَةٍ من مَسافتينِ

عَلى سبيلِ الألمِ

يغسلُ الملحُ خُطايَ

في وادي المَقابرِ

بِالبُعدِ من جَوفِ المَرايا

أتَكوّمُ أمامَ عَتَبةِ اللهِ

أتَضرّعُ وكَفي يَبكِي

يَا موتنا

في نِصالكَ الحَياةُ

كَأنّكَ وَطائرُ النّارِ ضِدّانِ.

هذا الرحيلُ النازِفُ لا يَتوقفُ

إنّهُ لا يَتوقفُ

أسدلتْ المدائِنُ سَتائِرَ الذّبحِ

فَأبحرتْ قَوارِبُ الموتِ

كَالسِّيقانِ المَبتُورةِ

كَانتْ الدِّماءَ تَنسَدِلُ عَلى أسوارِ المَدينةِ

كَأسماء الرّاحلينَ والشهداء

جَاءَ المَوتُ مَحمولاً عَلى عواهن الرياحِ
فقالوا اركَبوا الفُلكَ قبلَ الطّوفانِ.

في البدء كانَ وجهُ القمرِ فضَّةً
ذاتَ قتلٍ صارَ لونُهُ أزرقَ
يَمضونَ إلى الماء
وحيدين كَأوّلِ مَرةٍ
أسنَدوا انكسارَهُم على الأفقِ الضَّريرِ
يَتَوَسّدونَ المَتاهَاتِ
هُم الرَّاقِدونَ في شُقوقِ الحَسرةِ
مُثقلونَ بِالدعاء
مَحمومةٌ تِلكَ الأجسادُ المُتهالِكَةُ
تَتَلاطَمُهَا الرِّياحُ الضَّريرَةُ
وَتصفَعُها الأحزانُ.

كَأنَّ المَوتَ على عَجَلَةٍ من أرواحِهِم
وَضَعُوا أسمالهم وبؤسَهُم

فِي لَيلةِ مَاطرةٍ
يَتقاسَمونَ الخَيباتِ المَسمومَةَ
تَظُنُّهُم يَقظَى وهُم تَائِهونَ
بترَ البحرُ وريدَ الماء
وأوصدَ المَوجُ المَسفوحُ
خَاصرةَ الأخاديدِ دُونَهم
وَأضحى العَجزُ المَمسُوسُ
لِلأضرِحَةِ جُدرانًا.

انقلبَ البَحرُ على ظهرِهِ
لِيطوي النَّزعَ الأخيرَ
تَتَقلَّصُ اليَابِسةُ وتَتلاشَى
البحرُ لا نهايةَ لهُ
مَوجاتٌ حُبلى مَا تَنفَكُّ
تَبتَلِعُ الأجسادَ الطريَّةَ
ما بينَ الموجةِ والغيمِ الهاطلِ
تموتُ حَبّاتُ المَطرِ بَاكيةً

تَهاوتْ أجسادُ الصِبيةِ
أيَّها الرَّاقِدونَ فِي قَعرِ البَحرِ
تَحرُسُكُم قُلوبُ الأمَّهاتِ
أمواتٌ بلا أكفانٍ.

أحتاجُ إلى أكثرَ مِن الحُزنِ
أكثرَ منَ الغضبِ
لأتَحَسَّسَ المِسمارَ الأسودَ فِي خَاصِرتي
وهذا اليُتمُ المَوسومُ
يَتوالدُ وَجعًا كَعُشبِ السّهولِ
مَغروسًا فِي أحشائِي كَلعنةِ العَرَّافِ
أشهدُ أنَّ جَواربَ مَن قَضوا
أطهرَ مِن أعلَامِ البِلادِ.

يا أحمدُ الكنعانِيَّ
قَلبُ أُمكَ أيَّها الغَريبُ
قَد قَتلكَ الخذِلانُ.

ادْنُ مني بِبُطءٍ
نَعم هذا رَمادُ قَلبي يَرتَعِشُ غَمّاً
وَحُزنِي مَالحٌ بِلونِ الدُّموعِ
كَأنَّ الوَطنَ يَنبُذُنَا
كَأنَّ في استِعارةِ الفَجرِ الضَّريرِ
لا مُتَّسَعَ لِلفرحِ
أيُّها المُبحرونَ
اعبروا بِصمتٍ
هُنا يَرقُدُ الهَاربونَ مِن أخمَصِ أحلامِهِم
فَبينَ طيّاتِ المَاء تَغفوا أرواحُهُم
قَد أضحتْ والملحُ صِنوانٌ.

●●●●

يدُّ المساء

تمتدُّ يدُّ القدرِ
بَطيئَةً
وَهي تُغلقُ المَساءَ
تَنزَلِقُ عَلى لَيلِ
عَاري الأكتاف
تُغلقُ الستائرَ البَاهِتَةْ
على النَّوافِذِ الحزينةَ
مُنذُ غَادَرَتهَا البَلابلُ
وَتقشَّرَتْ الجُدرانُ.

للوحدةِ الموحشةِ
موعدٌ
كالظِّلِّ المُتَجمدِ
تَحتَ سِدرتينِ

تَنبِتانِ عَلى صَهوةِ
وردةِ
الطفولةُ وقتٌ مَشروخٌ
سَرابٌ يبحثُ عَن سرابٍ
ولا خيمةٌ تتّسعُ
لِهذا المَنفى
ولا ميدانٌ.

تَهجرني الشُّهبُ وتَبدو
كَطفلةِ تَدنو
من المرآةِ
أتأمَّلُ رِحلتَها الأولى
والأخيرةَ
غائرًا يَلوحُ صَحوي
قادمًا
منَ تَلافيفِ الدَّهرِ
سَاجدًا في جُرحِ الصَّبحِ
يَرجو الغفرانَ.

بَطيئةٌ هِي سَاعاتُ
الاحتِضارِ
تُكفكفُ دموعَ الموتِ
وتطِّهُرُ بالماء
توابيتَ القهرِ
ودموعَ النّهارِ
يفيضُ الزّبدُ القادمُ
مِن خَوابِي الحَبقِ
وقَبلَ انشطارِ الشّهقةِ
الأخيرةِ
يبتسِمُ المَاءُ
على الشُّرفاتِ المُهاجرةِ
بِلا عنوانٍ.

بَاردٌ هُوَ المَساءُ
وبَطيئَةٌ خُطواتُ الفَجرِ
تَطوينِي المَسافاتُ

أرمِي كَفي بِشقِّ
النَّافذة
أفتَرِشُ وَردَتي لأنامَ
أجذُبُ لِجسمي الجُنونَ
تَعبُرُ المَوانِئُ فِي أحلامِي
يَملَأُنِي الدَّمعُ
فيَنجِبُ بَحري لِقلبي
من مَرجانِهِ عينينِ.

••••

يَقعُ في عَويلستان

قالَ الرّاوي :

يا سادةٌ يا كرامُ

قَدْ حَدَّثَنا العَجوزُ

أبو الظُّبيانِ

أنَّ الأميرَ أبَا الرّضوانِ

قَد وَصلَ إلى عَويلستان

قادمًا مِن حُلمستان

مَع نَفرٍ مِن أصحابِهِ

وَبعضِ الجندِ الغلمانِ

بَعدَ أنْ تَناهَى لَهُم

أنَّ ابنَ حَسّانِ

جَارَ على قَومِهِ

وَشاعَتْ في البِلادِ

الفتنَةُ وغَابَ الأمانُ

فَهَالَهُم ما شَاهَدُوا مِن قَتلِ

وَخرابٍ كأنَّ البَحرَ

شُقَّ نصفينِ

والبلادُ عاثَ فيهَا الطّوفانُ

كانَ الدَّمُ كَثيراً

والموتى بِلا أكفانِ

بَكوا بُكاءَ الصِّبيانِ

صَاحتْ عَجوزٌ بِلا مَلامِحِ

هَذه البِلادُ أشباحٌ

قَد مَضَغَتهَا الغيلانُ

وَحُزنُنا قَد أصبَحَ عَارِيًا

بِلا إيمانِ

رَكعَ الأبشريّ

فوقَ لُبّادَةِ الدَّمِ

صَاحَ
كَاذبٌ قاتلُ هَيّانِ
ابن حَسّانِ لا ذمةَ لَهُ
النِّفاقُ والغَدرُ فيه صُنوانِ
يا ربِّ
ارفعِ الضَّيمَ
وأرسِل رَحمتَكَ
سَيلاً وَمَطرًا يَلتقيانِ.

••••



المؤلف في سطور

- كاتب وشاعر دانمركي من أصل فلسطيني
- عضو اتحاد الصحفيين الدنمركيين
- عضو الإتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
- عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب
- عمل سابقًا في تلفزيون كوبنهاجن وفي راديو منظمة إدفاد الدولية لمكافحة التمييز العنصري
- يعمل حاليًا باحثًا في قضايا اللجوء في الصحافة الاستقصائية.
- الإصدرات:

ـ ثرثرة في كانون: قصائد. الدار البيضاء ٢٠٠٨

ـ خلف البياض: قصائد. القاهرة ٢٠١٣

ـ أطياف تراوغ الظمأ: قصائد. شمس للنشر والإعلام، القاهرة٢٠١٦

الفهـرس



(+2) 02 27238004 /(+2) 01288890065

www.shams-group.net